الفصل الأول

الحياة العامة في مصر والشام في عهد المماليك البحرية

من سنة ٦٥٦ هـ الى ٧٨٤ هـ

تقديم

لم أر بداً قبل البحث في حياة الصفدي ونقده ؛ من سعي لكشف جوانب الحياة العامة التي أحاطت به ، وتنفس في جوها ، فكان لها التأثير بقدر ما في تكوينه وتلوين إنتاجه ، مما ينير لنا الميدان الذي كان يضطرب فيه بين مصر والشام ، في دولة المماليك البحرية ، ويفسر العديدَ من الظواهر والنظرات في أدبه ومقاييسه ، إذ لم يكن الصفدي بعيداً بشخصه عن تيارات الحياة العامة تلك وهو يتولى المناصب الحساسة في كبرى عواصم الدولة آنذاك .

ولكي يكون الحديث مركّزاً بيّن الخطوط واضحَ القسمات أعمد الى تحديد منطلقه بدءاً من سقوط بغداد حيث وُلدت دولة المماليك ،وخاصة أن سقوط بغداد يشكّل مفترقاً رئيسياً ، اتخذت بعده السُبل طرقها الجديدةَ للتكيّف مع الوضع الجديد ، الذي فرض نفسه على المنطقة باستيلاء التتار ذوي البأس والأطماع الواسعة على بغداد والمشرق كلِه ، ومدوا بأبصارهم النهِمة شطرَ بلاد الشام ومصر .

هذا من الناحية السياسية ، أما من الناحية الاجتماعية فان الصدمة الكبرى التي

هزت العالم الاسلامي بسقوط منارته الأولى بغداد ؛ قد أثّر في مشاعر الناس ، وزاد من تعاطفهم وحذرهم ، وغيّر شيئاً من علاقاتهم . كما أن هذا الحدث الكبير ترك من الناحية العلمية والثقافية آثاراً واضحة ، من إتلافه كنوز اللغة والعلم في بغداد ، وقتلِه للعلماء ، وفرارِ من نجا من هؤلاء العلماء الى مصر وبلاد الشام ، مما سيترك أثراً في حياة هذين البلدين العلمية والتأليفية .

لهذه العوامل جميعها ، رأينا أن نجعل عام ٦٥٦ هـ بدءاً للحديث في هذه المقدمة العامة بين يدي البحث الأدبي .

الحالة الإدارية :

بدأت هذه المرحلة مع مقتل المملوك عز الدين أيبك ، على يد شجرة الدر ، وتسلّم ولده الصغير نور الدين علي مقاليد الحكم بوصاية المملوك قطز .

وردّد الناس في مصر ، أخبار الكتب التي أرسلها هولاكو الى الناصر الأيوبي صاحب دمشق ، جاء في أولها ما صورته :

« يَعلم السلطان ملك الناصر طال بقاؤه ، أنه لما توجهنا الى العراق ، وخرج الينا جنودهم ، فقتلناهم بسيف الله ، ثم خرج الينا رؤساء البلد ومقدّموها ، فكان قصارى كلامهم ؛ سبباً لهلاك نفوس تستحق الهلاك ، وأما ما كان من صاحب البلدة ؛ فانه خرج الى خدمتنا ودخل تحت عبوديتنا ، فسألناه عن أشياء كذَبَنا فيها فاستحق الإعدام ، فكان كذبُه ظاهراً ووجدوا ماعملوا حاضراً . أجبْ ملك البسيطة ولا تقولنّ قلاعي المانعات ورجالي المقاتلات ، وقد بلغَنا أنّ شَذرة من العسكر التجأت اليك هاربة ، والى جنابك لائذة .

أَيْنَ المفرُّ وَلا مَفرَّ لِهَارِبٍ وَلَنَا البَسيطانِ الثَّرَى وَالماءُ

فساعةَ وقوفِك على كتابنا تجعل قلاعَ الشام سماءَها أرضاً وطولَها عرضاً والسلام »

فتجاهل الناصر هذا الكتاب ، ولم يُجب عنه كما لم يستجب لما جاء فيه . فورد اليه من هولاكو كتابُه الثاني تلفُّه لهجة الإرهاب والتهديد يقول فيه :

« خدمةَ ملك ناصر طال عمره ، أما بعد ، فإنا فتحنا بغداد ، واستأصلنا مُلْكَها ومَلِكَها ، وكان قد ظن ـ وقد فُتن بالأموال ولم ينافس بالرجال ـ أن

مُلْكه يبقى على ذلك الحال ، وقد علا ذكرُه ونما قَدْرُه ، فخُسف في الكمال بدره .

إذا تمّ أَمْرٌ بدا نَقْصُهُ   تَوَقَّعْ زَوالاً إذا قيلَ تَمّْ

ونحن في طلب الازدياد على مرِّ الآباد ، فلا تكن كالذين نسوا اللهَ فأنساهم أنفسَهم ، وأبْدِ ما في نفسك إما إمساكٌ بمعروف أو تسريح بإحسان ، أجِبْ دعوةَ مَلِكِ البسيطة ؛ تأمَنْ شرَّه وتنل بِرّه ، واسْعَ إليه بأموالك ورجالك ، ولا تعوِقْ رُسُلَنا والسلام » .

فَصبر الناصرُ على هذا الكتاب . فأرسل هولاكو كتاباً ثالثاً أرْغى فيه وأزْبد واشتد وتوعّد فقال :

« أما بعد فنحن جنودُ الله ، بنا ينتقم ممن عتا وتجبر ، وطغى وتكبر وبأمر الله ما ائتمر . إنْ عوتبَ تنمّر ، وإن روجع استمر ، ونحن قد أهلكْنا البلاد وأبدْنا العباد وقتلنا النسوان والأولاد ، فيا أيها الباقون أنتم بمن مضى لاحقون ، ويا أيها الغافلون أنتم إلينا تساقون ، ونحن جيوش الهلكة لا جيوش المملكة ، مقصودُنا الانتقام ، ومُلْكنا لا يُرام ، ونزيلنا لا يُضام . وعَدْلُنا في مُلْكنا اشتهرْ ، ومن سيوفنا أينَ المفر .

أَيْنَ المفَرُّ ولاَ مَفَرَّ لهاربٍ   ولنا البسيطانِ الثّرَى والماءُ

ذَلَّتْ لِهَيْبَتِنا الأُسُودُ وأَصْبحَتْ   في قَبْضَتِي الأُمَراءُ والخلفاءُ

نحن إليكم صائرون ، ولكم الهرب وعلينا الطلب .

« دمّرْنا البلاد ، وأيْتمْنا الأولاد ، وأهلكْنا العباد ، وأذقناهم العذاب ، وجعلنا عظيمَهم صغيراً ، وأميرَهم أسيرا . تحسَبون أنكم منا ناجون أو متخلصون ، وعن قليل سوف تعلمون على ما تُقْدِمون ، وقد أَعْذَرَ مَنْ انذر »(١) .

وهنا شعر الناصر بالخطر ولم يَقْوَ على الصبر ، فسارع بإرسال الصاحب كمال

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣١٤ - ٣١٥ .

الدين العديم الى مصر ، يطلب النجدة على التتار ، فجمع قطز الأمراء والأعيان للتشاور ، وبعد أيام يسيرة خلع السلطانَ الصغير وقال : هذا صبي والوقت صعب ، ولا بد من أن يقوم رجل شجاع ينتصب للجهاد . وتسلطن قطز ولقب بالملك المظفر .

وفي هذه الأثناء ؛ جاءت الأخبار بزحف هولاكو نحو الشام ، ففي سنة ٦٥٧ استولى على الجزيرة الفراتية ، وفي سنة ٦٥٨ دخل حلب وقتل فيها ما يزيد على قتلى بغداد ، ووصل إليه في حلب الملك الأشرف الأيوبي صاحب حمص ، فأكرمه هولاكو وأعاده الى حمص ، ثم أرسل صاحب حماة مفاتيحها الى هولاكو في حلب ، فاستناب عليها رجلاً من العجم . وأمر صاحب حمص بهدم أسوار قلعة حماة ، فخربت وأحرقت زردخانتها[١] . وأما دمشق فإن نائب هولاكو قدم إلى أهلها بالفرمان[٢] والأمان ، فتلقاه كبراء المدينة ، وأنفذت مفاتيح دمشق إلى هولاكو «[٣]» . ووصل هولاكو الى غزة بعد أن قتل الناصرَ صاحبَ دمشق وفر بقايا الأيوبيين الى مصر .

وبعد أن تم لهولاكو كل هذا ؛ بعث الى المظفر قطز كتاباً جاء فيه : « يعلم الملك المظفر قطز ، الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا ؛ أنا نحن جندُ الله في أرضه ، خلقنا من سخطه ، فاتعظوا بغيركم وأسلموا الينا أمركم »[٤] .

غضب قطز ، وقتل رسول هولاكو ، وردّ عليه بكتاب يتوعده ، وعاهده المماليك على الاستماتة في سبيل البلاد وسار المظفر إليهم فكان اجتماعهم على عين جالوت

---

(١) مستودع الاسلحة .

(٢) مراسيم السلطان .

(٣) النجوم الزاهرة حوادث سنة ٦٥٨ .

(٤) السلوك للمقريزي القسم الثاني من الجزء الاول ص ٤٢٧ وما بعدها .

يوم الجمعة ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ ، فاقتتلوا قتالاً عظيماً ، وكان مع التتار بعض الأمراء الأيوبيين ، فهزمهم المسلمون هزيمة كبرى ، وقُتل أمير المغول كتبغانوين ، وأُسر ممن معه الملكُ السعيد الأيوبي ، فأمر المظفر بضرب عنقـــه ، واستأمن الأشرفُ الأيوبي صاحب حمص وكان مع التتار وقد جعله هولاكو نائباً على الشام كله ، فأمّنه وردّ اليه حمص ، وأرسل المظفر الأميرَ بيبرس لملاحقة التتار في كل مكان ، الى أن وصلوا خلفهم الى حلب ، وهرب من كان منهم بدمشق ، وتبعهم العرب يقتلون فيهم ويخلّصون الأسرى منهم .

وقد أظهر بيبرس شجاعة ومقدرة ، جعل السلطان يتنازل له عن حلب ، ثم لم يفِ بوعده ، فأضمر بيبرس الشر ، ثم اتفق مـــع بعض الأمراء على قتله ، فقتلوه في الطريق ، ولم يحكم سوى سنة وتولى بيبرس مكانه من ٦٥٨ الى ٦٧٦ هـ ، ولقبوه بالظاهر ، وكان حازماً بطلاً فعم الخير ، وانتشرت الطمأنينة بحُكمه .

خاف التتار من هذا ، فأثاروا سِنْجِر صاحبَ الشام ضده ، فنادى بنفسه سلطاناً وتلقب بالملك المجاهد ، فسار بيبرس نحوه ، فتلقاه التتار فهزمهم وسار نحو دمشق ، ففتحت له أبوابها ، فقَضى على سنجر وأعوانه فهدأت البلاد وعكف بيبرس على الإصلاح وتشييد المدارس التي ما تزال آثارها باقية .

وأقدَمَ بيبرس على إحياء الخلافة العباسية ، بعد أن بقي المسلمون ثلاثَ سنوات دون خليفة ، وذلك تدعيماً لمصر ، ورفعاً لشأنها ، بجعل القاهرة مقرَّ الخلافة الإسلامية ، فقد علم بوجود واحدٍ من بني العباس قد نجا من مجزرة هولاكو ببغداد ، وهو الإمام أحمد ابن الظاهر عمُّ المستعصم آخر الخلفاء ، فاستدعاه الى مصر وتلقاه بنفسه ، ثم عُقد مجلسٌ شرعي ثَبَتَ فيه نسبُ الإمام ، وبويع بالخلافة سنة ٦٦٠ [1] ولقب بالمستنصر بالله .

---

(١) في عصر الانحدار سنة ٦٥٩ والأرجح عندي سنة ٦٦٠ فابن كثير يذكر بيعة الحاكم بأمر الله سنة ٦٦١ وخلافة المستنصر دامت خمسة أشهر فقط .

ثم أراد الملك الظاهر ان يسترجع بغداد للخلفاء العباسيين من يد التتار ؛ فأعد جيشاً وسار مع الخليفة المستنصر بالله ، فلما وصلوا دمشق ؛ عاد بيبرس الى مصر ، وتقدم المستنصر بالله قاصداً بغداد ، وقبل أن يصلها لقيه التتار فقاتلوه وقتلوه وأكثر جيشه ، ولم تدم خلافته أكثر من خمسة اشهر ، فتولى بعده ابنه وتلقب بالحاكم بأمر الله سنة ٦٦١ هـ .

وحاول الصليبيون الاستفادة من الظروف للإغارة على دمشق « فهزمهم بيبرس وفتح كثيراً من المدن والقرى ، وفي سنة ٦٦٣ أغار على عكا فرأى أنها لا تُنال فتوجه إلى قيسارية ففتحها ، واشترك هو في هدم أسوارها ، ثم وجه جيشه الى بلاد أرمينية وهدم عاصمتها سيس وفي سنة ٦٦٤ فتح صفد ، وبعد سنتين فتح يافا وهدم قلعتها ، ثم طرابلس ، ثم فتح أنطاكيه وفتك بالصليبيين وملوكهم ، واتجه الى حصون الصليبين على الساحل السوري ففتحها واحداً واحداً ، وفي سنه ٦٧٠ سار لمحاربة الباطنيين في شمال سوريا والعراق فقضى عليهم ، وعاد الى القاهرة .

« ثم توجه الى أرمينية وفتحها من جديد ، وقيل في خوضه الفرات مع جيشه الشعر الكثير [1] » .

وفي سنة ٦٧٣ « اطلع السلطان على ثلاثة عشر أميراً كاتبوا التتار يدعونهم إلى بلاد المسلمين فأُخذوا وأقَرّوا بذلك وكان آخر العهد بهم [2] » .

« وفي سنة ٦٧٥ علم بقدوم التتار من آسيا الصغرى ، فنهد إليهم والتقى بجمعهم قرب حلب وكان له النصر ، ثم عاد للقاهرة فوجد بها خمسة وعشرين رسولاً من جهة ملوك الارض ينتظرونه فتلقّوه وحدثوه وقبّلوا الأرض بين يديه ودخل القلعة في أبهة عظيمة [3] » .

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٢٦٣

(٢) البداية والنهاية ١٣ / ٢٦٨

(٣) البداية والنهاية ١٣ / ٢٦٩

ثم جهّز أسطولاً لغزو قبرص فحطمته الرياح ، وأسر الفرنجُ من كان فيه ، فلم يثنِ ذلك همة بيبرس بل أمر بإنشاء اسطول آخر للأخذ بالثأر ولكنه مات قبل أن يتم ما عزم عليه ، ففي سنة ٦٧٦ سار الى أنطاكية متفقداً ، فمرض وتوفي في طريقه إلى دمشق ، ودفن فيها تحت قبة المدرسة الظاهرية .

بايع الأمراءُ بعده ابنه الأمير محمد بركة خان وتلقب بالملك السعيد وهو في التاسعة عشرة ، وكان فيه نزق الشباب ولهوه ، فأبعد أمراء أبيه وقرّبَ الشباب الصغار فخلعوه سنة ٦٧٨ ونُفي الى الكرك ثم مات .

ولّى الأمراءُ بعده أخاه بدر الدين سلامش وهو في السابعة ، وأقاموا سيف الدين قلاوون أتابكاً[1] له ، ولم يلبث قلاوون أن خلع بدر الدين ، وأعلن نفسه سلطاناً ، وتلقب بالملك المنصور ، فلما علم بذلك سنقر الأشقر الذي كان قلاوون قد عيّنه نائباً للسلطنة في دمشق ؛ أعلن انفصاله وبايعه أمراؤه على السلطنة ولُقّب بالملك الكامل ، فأرسل المنصور اليه جيشاً فانهزم سنقر ، وهرب الى الرحبة ، وكاتبَ التتار وأطمعهم في مُلك الشام ، فلم يتوانوا عن اهتبال هذه الفرصة . « فبينما كانت البلاد كذلك اذ أقبلت التتار لما سمعوا بتفريق كلمة الأمة . فانجفل الناس من بين أيديهم من سائر البلاد الى الشام ومن الشام الى مصر . فوصلت التتار الى حلب فقتلوا خلقاً كثيراً ونهبوا ... وكتب المنصور الى سنقر الأشقر بأن التتار قد داهمونا ، والمصلحة أن نتفق عليهم لئلا يهلك الشعب بيننا وبينهم فكتب اليه سنقر بالسمع والطاعة وبقي مستعداً لقتال التتار ، فما لبثوا أن علموا برجوع التتار من حلب الى بلادهم ، وذلك لما بلغهم من اتفاق كلمة الأمة »[2] .

وفي سنة ٦٨٠ سار قلاوون الى الشام لإصلاح أحوالها ، فبلغه أن التتار يقصدون الإغارة على الشام ، فلبث حتى وافاه جيش التتار بقيادة منكوتمر ابن

---

(١) الأتابك بمعنى الوصي والمربي . (٢) البداية والنهاية ١٣/٢٩١

هولاكو ، فالتقى الفريقان في ظاهر حمص ، وحصل قتال عنيف انتصر فيه المسلمون انتصاراً باهراً وقتلوا أميرهم منكوتمر .

انتهز الصليبيون هذه الظروف فأغاروا على البـــلاد ، فزحف اليهم قلاوون وأخضعهم ، وفي سنة ٦٨١ توفي أباقاخان ابن هولاكو وتولى الملك بعده تكدار ابن هولاكو فأسلم وتسمى أحمد « وأرسل الى السلطان المنصور يطلب منه المصالحة وحقن الدماء فيما بينهم ، فأجاب المنصـــور الى ذلك وكتب المكاتبات الى ملك التتر بذلك [١] .

وفي سنة ٦٨٨ زحف المنصور الى طرابلس « وكان لها في أيدي الفرنج من سنة ٥٠٣ ففتحها ولم ينج من أهلها إلا اليسير ، ثم أمر أن تهدم البلد ، وأن تبنى على ميل منها بلدة غيرُها ، أمكن منها وأحسن ففعل ذلك ، وهي هذه البلدة التي يقال لها طرابلس[٢] » . ثم عاد المنصور الى مصر وأخذ يتجهز لفتح عكا ، ولكن المنية أدركته سنة ٦٨٩ فكانت مدته إحدى عشرة سنة ونيفا .

تولى بعده ابنه صلاح الدين خليل وتلقب بالملك الأشرف ، وأراد تتميم مقصد أبيه « ونودي في دمشق الغزاة في سبيل الله الى عكا ، فأبرزت المجانيق الى ناحية الجسورة وخرجت العامة والمتطوعة يجرون في العجل حـــتى الفقهاء والمدرسون والصلحاء ، واجتمع الناس بالجوامع لقراءة صحيح البخاري . فحاصرها وفتحها وفتك بالصليبيين ، وأمر بهدمها وتخريبها ، ثم استولى على صيدا ثم بيروت وهدم أسوارها ، ففرح العرب ودُقت البشائر في سائر الحصون ، ولم يبق بالسواحل ولله الحمد معقل للفرنج ، وأراح الله منهم البلاد والعباد » [٣] .

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٢٩٩
(٢) المصدر السابق ١٣ / ٣١٣
(٣) البداية والنهاية ١٣ / ٣٢٠

وهكذا كانت حملة الأشرف خليل ثالثة الحملات العنيفة على الصليبيين بعد بيبرس وصلاح الدين الأيوبي .

بيد أن أوربا لم ترض بهذا ، فجهزت الحملة الصليبية السابعة والأخيرة التي انتهت الى الهزيمة والتشتت ولجأ بعض الصليبيين الى جبال سورية ، فكانوا شوكة في جنب الدولة ومصدر اعتداء على السهول المجاورة ، وقد قام بتأديبهم الأشرف خليل .

وفي سنة ٦٩٢ توجه السلطان الى حلب ، ومنها الى آسية الصغرى لقتال المغول ومن معهم من الأرمن ، فأعمل فيهم السيف وفتح بلاد أرزن الروم، وعاد الى القاهرة وقد ذاع صيته وهابه الناس ، وقيلت قصائد الشعر في الإشادة بأعماله[1] .

وفي أول سنة ٦٩٣ أقدم بعض الأمراء ، وعلى رأسهم نائبه بيدرا على قتله ، أثناء ذهابهم للصيد « فتألم الناس لفقده ، وقد كان شجاعاً عالي الهمة حسن المنظر وكان قد عزم على غزو العراق ، واسترجاع تلك البلاد من أيدي التتار ، واستعد لذلك ونادى به في بلاده[2] » . فكانت مدة ولايته ثلاث سنين حافلة بالفتوحات الجليلة . ومن آثاره بالقاهرة « خان الخليلي » نسبة اليه ، وقد بناه على أنقاض مدافن الخلفاء الفاطميين .

تولى مكانه قاتله بيدرا وتلقب بالملك القاهر ، ولكن مماليك الملك الأشرف قتلوه بعد يوم واحد ، فولى الأمراءُ محمد بن قلاوون أخا الملك الأشرف وهو في التاسعة من عمره ولقبوه بالملك الناصر ، وعينوا الأمير زين الدين كتبغا أتابكاً له علماً بأن كتبغا هذا تتري « من سبي وقعة حمص الأولى التي كانت في أيام الملك الظاهر بعد وقعة عين جالوت ، وهـو من طائفة التتر العويراتية[3] » ولم يلبث

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٣٢٧

(٢) البداية والنهاية ١٣ / ٣٣٥

(٣) البداية والنهاية ١٣ / ٣٣٨

كتبغا أن خلع الناصر ونفاه الى الكرك ، ونادى بنفسه سلطاناً ، وتلقب بالملك العادل سنة ٦٩٤ وكان سيء الإدارة ، أصيبت البلاد في عهده بالمصائب من طاعون وقحط « فكان الفناء والغلاء بديار مصر شديداً جداً ، فمات بها في شهر صفر مئة ألف ونحوٌ من ثلاثين الفاً ، حتى أفنيت الحُمُر والخيل والبغال والكلاب من أكل الناس لها ، ولم يبق شيء من هذه الحيوانات يلوح بالا أكلوه[1] » .

وزاد الأمر سوءاً استقدامُه طائفةً من التتر العويراتية ، وكانوا حوالي ثلاثمائة رجل الى مصر « فقدموا لما بلغهم سلطنةُ كتبغا الى الشام ، فتلقاهم الجيش بالرحب والسعة ، ثم سافروا الى الديار المصرية ، ومكنّهم من وظائف الدولة فعاثوا فساداً ، حتى قال الشاعر محمد ابن دينار :

رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا العَذَابَ فَإِنَّا قَدْ تَلِفْنَا فِي الدَّوْلَةِ المُغْلِيَّهْ
جَاءَنَا المُغْلُ وَالغَلَا فَانْسَلَقْنَا وَانْطَبَخْنَا فِي الدَّوْلَةِ المَغْلِيَّهْ[2] »

ثم ثار الناس على كتبغا ففر الى دمشق ، وكان قد خلعه فيها نائبه حسام الدين لاجين ، وتسلطن على مصر والشام سنة ٦٩٦ ، وتلقب بالملك المنصور ، وبدأ عهده فسجن العويراتية في الإسكندرية .

وفي سنه ٦٩٧ أغار المنصور على بلاد سيس وأذنة الأرمنية وعاد بالغنائم ، « ثم أمر بعمل غارة ثانيه فخاف ملك الأرمن وأرسل اليه يطلب الصلح ، فشرط عليه أن يكون الحد الفاصل بين مُلْك مصر ومُلْك الأرمن نهر جيحون فأجابه ملك الأرمن الى ذلك[3] » .

وفي سنة ٦٩٧ فرّ الأمير سيف الدين قبجق نائب دمشق وجماعةٌ من الأمراء

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٣٤٣
(٢) خطط المقريزي ٣ / ٣٥
(٣) دائرة المعارف محمد فريد أبو حديد ٩ / ١٠٣

الى بلاد التتر بحجة « أن السلطان قد تفلت خاطره نحوهم » وفي سنة ٦٩٨ بعث السلطان بجيش الى حلب بقيادة قفجاق لقاء المغول ، فانضم الى غازان ملك المغول ، فأراد السلطان السير بنفسه الى حلب ، فقتله أحدُ أنصار قفجاق سنة ٦٩٨ .

تولى بعده الامير سيف الدين طقجى وتلقب بالملك القاهر ، فقتله بعد يوم واحد أنصار الملك الناصر ابن قلاوون نزيل الكرك ، فاتفق الأمراء على إعادة الناصر سلطاناً وأعيد سنة ٦٩٨ وهو في الخامسة عشرة . وفي هذا العام نفسه دخل الناصر الى دمشق في طريقه لقاء التتار « فكثرت الأدعية وامتلأ البلد من الجافلين النازحين من بلاد حلب وحماة ، واقتُرضت أموال الأسرى لأجل تقوية الجيش ، وخرج السلطان بالجيش من دمشق ، وخرج معهم خلق كثير من المتطوعة ، وأخذ الناس في الدعاء والقنوت والتقى الجيش بالتتار عند وادي سلمية فهُزم الجيش وولى السلطان هارباً . فخرج أهل دمشق خاضعين ، واستطاع الأعيان وعلى رأسهم ابن تيمية أن ينالوا الأمان من غازان لأهل دمشق [١] » .

ولكنه أمان التتار فقد نكبوا البلد وسبوا منه خلقاً كثيراً ، كما بـــذل الأغنياء الكثيرَ إنقاذاً لأموالهم ، فقد ذكر الشيخ وجيه الدين ابن المنجا أنه حمل الى خزانة غازان ثلاثـــة آلاف ألف وستمئة ألف درهم ، سوى ما تمحَّق من التراسيم والبراطيل [٢] وما أخذه غيره من الأمراء والوزراء . وأن شيخ المشايخ حصل له نحو ستمئة ألف درهم ، والأصيل ابن النصير الطوسي مئة ألف ، والصفي السخاوي ثمانون ألفاً [٣] » .

ليت شعري ألا يجدر به وهو المسالك لهذا وغيره أن يُقدِّم شيئاً منها لإعداد حماته وأمثاله ؛ بدل أن يقترضوا لتجهيز هذا الجيش أموالَ اليتامى والأسرى ! .

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٦
(٢) أي الرسوم والرشاوى .
(٣) البداية والنهاية ١٤ / ٩

وهكذا أمست دمشق تحت سلطة التتار الذين أنابوا عليها قبجق الذي « طلب القضاةَ والأعيان وحلّفهم على المناصحة للدولة المحمودية ـ يعني غازان ـ فحلفوا له[1] » ولكن هذا لم يدم أكثر من مئة يوم ، إذ سرعان ما أعاد السلطان الناصر تنظيمَ جيشه وزحف الى الشام ، وهزم المغول ودخل دمشق ، فتركها غازان ، وانتقل السلطان منها الى حماة وحلب وفعل بهما ما فعل بدمشق .

« وقامت في دمشق حملة على المتعاونين مع العدو ، فشُنق منهم طائفة ، وسُمِّرَ آخرون ، وكُحِّلَ بعضهم ، وقطّعت ألسن ، ثم نودي في البلد أن يُعلق الناس الأسلحة بالدكاكين وأن يتعلم الناس الرمي . ثم استعرض نائب السلطنة أهل الأسواق بين يديه ، وجعل على كل سوق مُقدَّماً وحوله أهل سوقه »[2] .

وفي سنة ٧٠٠ قصد التتار بـــلاد الشام ، فدخلوا حلب وخيف زحفُهم الى دمشق ، وتردد السلطان في القدوم بجيشه الى بلاد الشام ؛ خوفاً من هزيمة تجعل البلاد كلها في أيدي التتار ، وذهب ابن تيمية الى مصر ، فلم يزل بهم حتى جرد العساكر الى الشام ، وزحف المغول سنة ٧٠٢ بمئة ألف مقاتل ، وعلى رأسهم قطلوشاه وتلاقى الجيشان في شقحب قرب دمشق « وثبت السلطان الناصر ثباتاً عظيماً وأمر بجواده فقيد حتى لا يهرب ، وبايـع الله تعالى في ذلك الموقف ، وحلف جماعةٌ من الفقهاء والعامة على القتال ، الى أن نزل النصر على المسلمين قريب العصر يومئذ »[3] .

انتهز صليبيو الجبال هذه الأحداث ، فأخذوا يغيرون على المدن وبخاصـــة صيـــدا وصور وبيروت ، فبعث اليهم آقوش الأفرم نائب دمشق جيشاً لضربهم ، فهُزم الجيش وغنمه الصليبيون . وفي سنة ٧٠٣ بعث السلطان الناصر جيشاً لقتالهم ، كما قام آقوش الأفرم بحملة سنة ٧٠٤ بعد خروج الشيخ ابن تيمية لغزوهم ففتح بلادهم .

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ١٠
(٢) البداية والنهاية ١٤ / ١١
(٣) البداية والنهاية ١٤ / ٢٦

وفي سنة ٧٠٨ يستفحل الخصام بين سلار نائب السلطنة وبيبرس رئيس القصر ، وانقسمت البلاد وحاول السلطان التخلص منهما فأحسا ، فأظهر أنه ينوي الحج ، فلما انتهى الى الكرك أقام به وتنازل عن السلطنة ، فتولى السلطنة بيبرس وتلقب بالملك المظفر ، واستمر سلار نائباً للسلطنة .

بيد أن أمراء المماليك لم يكونوا مخلصين له ، فأخذوا يستميلون الناس سراً الى الملك الناصر قلاوون ، فاستجاب الناصر لهم وسار الى دمشق واستولى عليها ، ثم سار نحو مصر فخلع بيبرس نفسه ، ثم اعتقل بعد أحد عشر شهراً من السلطنة ، وبويع الناصر للمرة الثالثة سنة ٧٠٩ ، واستمرت سلطنته حتى سنة ٧٤١ ، حيث صفا له الجو ثلاثاً وثلاثين سنة ، فصرف جُل اهتمامه للإصلاح ، كما سُير الجيوش الى بلاد الأرمن .

وبلغ من هيبة الدولة في زمنه ما جعل الفرنج يتهيبون الاقتراب من السواحل غازين أو معتدين ، فأرسلوا اليه سنة ٧٣٠ « رسلاً منهم يطلبون منه بعض البلاد الساحلية ، فقال لهم : لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ، ثم سيّرهم الى بلادهم خاسئين [1] » . كما حاول التتار وكان سلطانهم خدابنده فتح البلاد الشامية سنة ٧١٢ ، بمساعدة بعض أمراء المماليك المتمردين فأخفق ، وكتب الناصر الى سلطان المغـــول أبي سعيد سنة ٧٢٠ وعقد معه صلحاً ساد بعده الهدوء من ناحية التتار ، واستمر ذلك الى أن كانت نكبة تيمورلنك لبلاد الشام سنه ٨٠٣ ، وللعراق وسائر المشرق قبل هذا التاريخ .

وقد أتاح هذا الهدوء الذي نعم به الناصر ؛ الفرصة للالتفات الى جهاز الإدارة ومحاولة إصلاحه بعد أن سرى فيه الفساد حتى كاد يغلب عليه .

فقد أصدر السلطان سنة ٧١٢ أمراً غايته « ألّا يولّى أحد بمال ولا برشوة

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ١٤٨

فإن ذلك يفضي الى ولاية من لايستحق الولاية، والى ولاية غير الأهل[1]». كما اهتم بأمر الذين يمدون أيديهم الى أموال الأمة من ولاة الأمور بالقبض والعزل، وملاحقتهم بما أخذوا. ومما يلفت النظر حقاً كثرة هذه الحوادث حتى عَدَّدَ منها ابنُ كثير[2] ما يزيد على العشرة بين سنتي ٧٣٣ - ٧٣٨.

من هذه الحوادث ما كان يفعله الصاحب عز الدين غبريال ناظر الدواوين بدمشق سنة ٧٥٨ «فلقد ثبت أنه كان يشتري أملاكاً من بيت المال ويقفها ويتصرف فيها تصرف الملاك لنفسه[3]».

وفي سنة ٧٦١ سيتسع أمر هذه الظاهرة مما يدعو الى أن «يرد من الديار المصرية أميرٌ معه مرسوم بالاحتياط على دواوين السلطان بسبب ما أكلوا من الأموال المرتبة للناس من الصدقات السلطانية وغير ذلك[4]».

وكان من أعمال الناصر إلغاؤه إقطاعات المماليك، فقد كانت مصر مقسمة الى ٢٤ قيراطاً: يختص السلطان بأربعة، والمماليك والأجناد يختصون بعشرة، والباقي وقدره عشرة موزعة بين الأهلين جميعاً.

كما صدر «مرسوم آخر فيه إطلاق السُخر في الغصب وغيره عن الفلاحين[5]» وغيرها كثير من المراسيم الإصلاحية «حتى بلغت دولة المماليك أوجها في عهده[6]»

توفي السلطان الناصر محمدابن قلاوون سنة ٧٤١ مخلفاً ثمانية من الأبناء الذكور، فأسلم البلاد بهذا الى فوضى في الحكم لم تعرف له نظيراً، فقد راح الأمراء

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٦٦
(٢) المصدر السابق ١٤ / ١٥٨، ١٦١، ١٦٤، ١٦٦، ١٧٠، ١٨٠
(٣) المصدر السابق ١٤ / ١٥٨
(٤) المصدر السابق ١٤ / ٢٦٩
(٥) المصدر السابق ١٤ / ٧٠.
(٦) تاريخ مصر الحديث، جرجي زيدان ١/٣٣٩.

يتلاعبون بالسلاطين أبنائه وفقاً لأهوائهم وأطماعهم ، فما إن يولوا واحداً حتى يخلعوه ويجلسوا أخاه ، وهكذا حتى توالى على عرش السلطنة أولاده الثمانية في خلال أربعة عشر عـــاماً .

وقلّ أن يُكتفى بخلع السلطان بل يتعدى ذلك الى النفي أو السجن أو القتل في بعض الأحيان ، كما حصل لثلاثةٍ من أبنائه . وبعد أن نفد أبناؤه الثمانية يمم الأمراء شطر أبناء هؤلاء المخلوعين ، فسرت نحو هؤلاء التعساء مصائرُ العزل والنفي والقتل ، فكان من هؤلاء الأبناء محمد ابن المظفر الذي قتل أبوه من قبلُ ، فكان مصيره على يد يلبغا العزل والاعتقال سنة ٧٦٤ ، بعد أن تولى عامين ، وكان في الرابعة عشرة . ثم تلاه الأشرف شعبان ابن حسن ، الذي قُتل أبوه كذلك من قبل ، فلقى مصير أبيه خنقاً سنة ٧٧٨ هـ .

ومما يزيد الأمر سوءاً ؛ أن أكثر هؤلاء قد نُصبوا على السلطنة ، وهم في سن الطفولة الغضة ، مما يحفز الأمراء الكبار على الاقتتال للتسلط عليهم ، ثم ينجلي الصراع عن الإطاحة بالسلطان وبواحدٍ من الطرفين المتنافسين . فكان لا بد لهذه المهازل المضحكة المبكية ، التي انهمك الأمراء في تمثيلها على مسرح الحكم في مصر من آخر . فجاء برقوق ليكتب خاتمتها سنة ٧٨٤ بعد أن امتدت ما يزيد على الأربعين عاماً.

وكان برقوق هو الأمير الكافل للسلطان الطفل المسمى بالمنصور زين الدين حاجي ، فجمع في رمضان سنة ٧٨٤ الخاصة من الجنود والعلماء والأعيان ، فأجمعوا كلهم على بيعة برقوق ، وعزلِ السلطان الصالح . وانتهت بولاية السلطان الظاهر برقوق دولةُ المماليك البحرية ، لتخلفها ابتداءً منه دولة المماليك الجراكسة ، وذلك نسبة الى أصل ملوكها .

ويحق لنا أن نسأل عن مكان الخليفة وموقفه مما كان يجري في البلاد من تنافس وصراع وعزل وتنصيب لنقول : لقد كان الخليفة يشترك في عمليات الخلع

والتنصيب ليلفها بستار من الشرعية والحق لا غير [1] . ولم يحصل أن اعترض الخليفة على أمر أراده الأمراء ، لأنه يعلم جيداً أن استشارته في هذا و كتابته التقليد بالحكم ليس إلا إجراء شكلياً قد أبرم القرار فيه .

أما إذا كان في الأمر تنافس وصراع حول السلطة ؛ فما على الخليفة إلا الإذعان للمنتصر شاء أم أبى ، بل إنه سيشاء ويخلع عليه ويكتب تقليده . إذ لم يكن يصعب على السلاطين سجن الخلفاء أو نفيهم ببساطة ويسر ؛ عند أدنى تصرف لا يعجبهم ، فكيف بالاعتراض على عزل أو تنصيب . والأمثلة على هوان أمر الخلفاء وتجرؤ السلاطين [2] بل الأمراء [3] عليهم بالقبض أو السجن والنفي كثيرة ، لا يتسع لها مجال . كما يطلعنا المقريزي على مدى ما وصل اليه حال الخلفاء من الهوان والإهمال فيقول :

« وفي سنة ٧٤٨ أقيم للخلافة المعتضدُ بالله أبو بكر ، واستقر مع ذلك في نظر مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها ليستعين بما يرد الى ضريحها من نذور العامة على قيام أوَده . فإنّ مرتب الخلفاء كان على مكس الصناعة ، وحسْبُه أن يقوم بما لا بد منه في قوتهم ، فكانوا أبداً في عيش غير موسَّع ، فحسُنت حال المعتضد بما يبيعه من الشمع المحمول الى المشهد النفيسي ونحوه [4] » .

ولقد كان من حسن حظ البـــلاد ؛ أن أعداء الأمة التقليديين من الفرنج والتتار ؛ لم يكن لهم وجود في المنطقة خلال هذه الفترة المضطربة من تاريخ دولة المماليك ، فالفرنج كانوا قد استؤصلوا وتطهرت أرض الشام منهم ، على يد السلطان الأشرف خليل سنة ٦٩١ هـ إلا من لجأ الى الجبال ، من بقايا الحملة الصليبية السابعة

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٤٧ ، ٢٠٠ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٢٠ - ٣٢٢
(٢) تاريخ الخلفاء ص ٣٢٣
(٣) تاريخ الخلفاء ص ٣٣٣
(٤) الخطط ٣/٣٩٤

التي أرسلتها أوروبا بعد هذا التاريخ ، وهؤلاء وإن كانوا شوكة في جنب الدولة ؛ إلا أنهم لا يشكلون خطراً على كيانها ، شأنَ أسلافهم قبل سقوط عكا سنة ٦٩٠

وأما التتار فكانت دولتهم قد انقرضت من العراق والمشرق كله منذ عام ٧٣٨ ، لتقوم مقامها في العراق الدولة الجلايرية الجديدة ، على يد رئيسها الشيخ حسن الكبير ، وكانت تربطها بدولة المماليك روابط المودة والتعاون ، حتى إن الموصل وسنجار خُطبتا[1] لسلطان مصر دون اعتراض حكام الدولة . وقد استمرت هذه الدولة تحكم العراق حتى بدأ نجم تيمورلنك بالظهور سنة ٧٨٦ .

ملاحظات ونتائج :

نخلص من هذا كله الى ما يلي :

١ - رغم كل ما مر آنفاً من مآخذ المماليك ، فقد اتبعوا نظاماً حفظ للبلاد تماسكها ، كما حفظ بالتالي قوتها أمام الأعداء . فقد قسموا البلاد الى تسع ممالك ينوب عن السلطان في كل منها نائب للسلطنة ، يعاون هذا النائب أربعة قضاة ونائب للقلعة وأمير كبير . ونائب السلطنة في كل الممالك يعينه السلطان ويعزله أو ينقله ، وإذا حدث أن خرج أحدهم على طاعة السلطان ، استطاع السلطان أن يكلف من يريد من نوابه الآخرين بالمسير إليه وإخضاعه ، أو أن يسير إليه بنفسه . ومهما يكن من أمر فإن النائب الخارج عن الطاعة ؛ يُعد في نظر الجميع متمرداً ولا يقوم له أمر ، كما أنه ليس بصاحب حق وهو المملوك ، كما كان الحال عند الأمراء الأيوبيين ، مما سبب في حينه تمزق البلاد الى مدن وقلاع يسود التناحر والحذر علاقاتها .

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٢٩٣

٢ ـ كما أثبت المماليك أنهم أهل سياسة وحرب ، فاستطاعوا أن يديروا دفة البلاد غير مكتفين بصيانتها والدفاع عنها ، بل لقد أفلحوا في تطهير أرضها من ممالك الفرنج من أنطاكيه الى بيت المقدس ، على يد ثلاثة من أعيان ملوكهم ، وهم الظاهر بيبرس ٦٥٨ - ٦٧٦ ، والمنصور قلاوون ٦٧٨ - ٦٨٩ وابنه الأشرف خليل ٦٨٩ - ٦٩٣ الذي تحطمت أمام همته أسوار عكا وتم على يديه تطهير البلاد من كل أثر للصليبيين .

كما وقفوا سداً منيعاً أمام جحافل التتار واجتياحهم للمعمورة ، فذاقوا أمامهم عدداً من الهزائم مما لم تعرفه من قبل جيوشهم الظافرة .

والمتتبع لتفاصيل هذه المعارك وغيرها يعجب مما يلمسه من إقدام المماليك واستماتتهم في جهادهم [١] كما بدت من بعضهم روح فدائية عالية . ففي معركة حمص سنة ٦٨٠ « استشهد جماعة من سادات الأمراء منهم الأمير الكبير الحاج عز الدين إزدمر جمدار وهو الذي جرح ملك التتار يومئذ منكوتمر ، فإنه خاطر بنفسه وأوهم أنه منشق إليه ، وقلب رمحه حتى وصل اليه ، فطعنه فجرحه فقتلوه رحمه الله » [٢] .

فقد أقدم على هذه المخاطرة وهو يعلم أن سيوف التتار ستمزقه لا محالة ، فكان لابد من النصر إذن وقد تهيأت أسبابه في صدق العزيمة ، والسعي الى الموت حتى النصر .

ويزول عجبنا الى حد كبير إذا أنصتنا الى المقريزي ، وهو يخبرنا عن كيفية تربية هؤلاء المماليك وإعدادهم فيقول : « إذا قدم بالمملوك تاجره ، عرضه على السلطان ، ونزله في طبقة [٣] حسنة ، وسلمه لطواشي برسم الكتابة . فأول ما

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٢٥٥

(٢) البداية والنهاية ٢٣/٢٩٦

(٣) مكان الاقامة ، وشبه الشقة في عصرنا

يبدأ به تعليمُه ما يحتاج اليه من القرآن الكريم ، وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم ، ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالى ، ومعرفه الخط والتمرن بآداب الشريعة ، وملازمة الصلوات والأذكار .

« وكان الرسم إذ ذاك (أوامر السلطان) ألاّ تجلب التجار إلا المماليك الصغار ، فإذا شب الواحد من المماليك ؛ علمه الفقيه شيئاً من الفقه وأقرأه فيه مقدمة . فإذا صار الى سن البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحرب : من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك ، فيتسلم كل طائفة معلم حتي يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج اليه . وإذا ركبوا الى لعب الرمح أو رمي النشاب لا يجسر جندي ولا أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم . فينقل الى الخدمة ويتنقـــل في أطوارها رتبة بعد رتبة الى أن يصير من الأمراء . فلا يبلغ هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه ، واشتد ساعده في رمي النشاب وحسُن لعبه بالرمح ومرن على ركوب الخيل .

« ولهم أزِمّةٌ من الخدام ، وأكابر من رؤوس النُّوَب ، يفحصون عن حال الواحد منهم الفحص الشافي ، ويؤاخذونه أشدَّ المؤاخـــذة ويناقشونه على حركاته وسكناته ، فإن عثر أحد من مؤدبيه الذي يعلمه القرآن ، أو الطواشي الذي هو مسلَّمٌ اليه ، أو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه ، على أنه اقترف ذنباً ، أو أخل برسم ، أو ترك أدباً من آداب الدين ؛ قابله على ذلك بعقوبة مؤلمة شديدة بقدر جرمه .

« وبلغ من تأديبهم أن مقدم المماليك كان إذا أتاه بعض مقدّمي الطِّباق في السَّحَر يشاور على مملوك أنه يغتسل من جنابة ، بعث من يكشف عن سبب جنابته إن كان من احتلام فينظر في سراويله ، أفيه جنابة أم لا ، فإنْ لم يجد جنابةً جاءه الموت من كل مكان » ويعلّق المقريزي على هذا فيقول :

« فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك ، وقادة يجاهدون في سبيل الله ، وأهلَ سياسة يبالغون في إظهار الجميل ويردعون من جار أو تعدّى [1] » .

كان هذا قبل أن يتولى الناصر ابن قلاوون ، لأنه بعد توليه السلطنة أخلّ بهذه القواعد في تربية المماليك « فلم يراعِ عادةَ أبيه ومن كان قبله من الملوك في تنقل المماليك في أطوار الخدمة ، حتى يتدرب ويتمرن كما تقدم ، وفي تدريجه من ثلاثة دنانير في الشهر الى عشرة دنانير ، ثم نقله من الجامكية [2] الى وظيفة من وظائف الدولة ، بل اقتضى رأيه أن يمـلأ أعينهم بالعطاء الكثير دفعة واحدة [3] فأتاه من المماليك شيء كثير رغبة فيما لديه ، حتى كان الأب يبيع ابنه للتاجر الذي يجلبه الى مصر . وبلغ ثمن المملوك في أيامه مئة ألف درهم فما دونها » .

فهذه الحقيقة التي كشف عنها المقريزي تفسر لنا فترة الفوضى والاضطراب التي تلت وفاة الناصر من سنة ٧٤١ ، فكانت أدواتها أبناؤه وحفدته ، يتحكم الأمراء بمصائرهم خلعاً وقتلاً وتنصيبا ، الى أن تسلطن برقوق الذي زاد الإساءة في إعداد المماليك حين « رخّص لهم في سُكنى القاهرة وفي التزوج ، فنزلوا من الطباق من القلعة ، ونكحوا من نساء أهل المدينة ، وأخلدوا الى البطالة ، ونسوا تلك العوائد » ولم يتوقف الأمر عند هذا بل « بقي الجلب من المماليك ، لكنهم من الرجال الذين كانوا في بلادهم ما بين ملاح سفينة ، ووقاد في تنور خباز ، ومحول ماء في غيط أشجار ونحـــو ذلك » .

وزاد الأمر سوءاً حين استقر رأي ولده الناصر فرج « على أن تسليم المماليك للفقيه يتلفهم ، بل يتركون وشؤونهم . فبُدّلت الأرض غير الأرض ، وصارت المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم ، وأخسهم قدراً ، وأشحهم نفساً ، وأجهلهم

---

(١) الخطط ٣/٢٤٧
(٢) الحياة في الطباق والأرزاق العيلية
(٣) ويبدو أنه أخذ يجلبهم كباراً

بأمر الدنيا ، واكثرهم إعراضاً عن الدين ، ما فيهم إلا من هو أزنى من قرد ، وألص من فأر ، وأفسد من ذئب » ويبني على هذا فيقول « لا جرم إن خربت أرض مصر والشام ، من حيث يصب النيل الى مجرى الفرات بسوء إبالة الحكام ، وشدة عبث الولاة ، وسوء تصرف أولي الأمر ، حتى إنه ما من شهر إلا ويظهر من الخلل العام ما لا يُتدارك فرطه [1] » .

فهذا النص وإن احتملنا طوله ؛ لكنه فسر لنا سر فلاح المماليك وانتصاراتهم في أول الأمر ، ثم علة تدهور حالهم حتى آلوا الى أسوأ حال بعد ذلك .

فقد أدركوا أن مسوغ وجودهم على رأس الحكم بديلاً شرعياً عن أمراء بني أيوب إنما هو تدينهم وحسن سيرتهم ثم قدرتهم الحربية ، فحققوا الجانب الأول من تكوينهم بالتربية القويمة التي كشف المقريزي عن أسسها ، كما حققوا الجانب الآخر بالتدريب المستمر . فتنافسوا في اقتناء الخيول ، حتى كان يصل ثمن الحصان الى السبعين ألف درهم [2] ، وأقاموا لها الميادين العامة للسباق والتدريب ، يمارس فيها الأمراء والمماليك على السواء من الظهر الى العشاء جميع الألعاب الحربية [3] فلا عجب أن تكون لهم القدم الثابتة في الحروب وأن يحققوا الانتصارات الباهرة على الصليبيين والتتار والأرمن وغيرهم ويثبتوا أقدامهم في الحكم حين استماتوا في الدفاع عن العرب وبلادهم ، فاحتلوا مكانهم من قلوب الشعب [4] فلم يعد يُشعَر بأنهم عناصر شتى غريبة عنه . وقد أثبتت الحوادث صحة هذا ، فحين تخلى المماليك عن هذه العناصر الأساسية ، التي أدركها سلاطينهم الاوائل ، مالت شمسهم الى المغيب ، وضج الشعب من مظالمهم

---

(١) الخطط ٣/٣٤٧

(٢) الخطط ٣/٣٦٥

(٣) تاريخ مصر الحديث ١/٢٢٥

(٤) البداية والنهاية ١٤/٣١٢

ورقة دينهم وفساد سلوكهم كما أوضح المقريزي ، فكان ذلك إيذاناً بزوال دولتهم فيما بعد بيد العثمانيين .

٣ - كما تطالعنا في هذه الفترة ظاهرة الفرار الى التتار ، او استدعائهم والاستعانة بهم ، وقد بدأت هذه الظاهرة بابن العلقمي الوزير قبيل سقوط بغداد ، ثم لم يتورع عنها بعض الأمراء الأيوبيين [١] بعد الملك العادل ، حتى استعان بعضهم بالصليبيين [٢] للفتك ببعضهم الآخر ، واقتبس هذا بعد ذلك أمراء المماليك [٣] كلما شعر أحدهم بالخطر يتهدده من السلطان ، أو أنه لم ينل ما كان يؤمله منه ، فكان العدو التتري يفرح بهم ويبالغ في تكريمهم ، حتى زوّجوا أحدهم وهو قرا سنقر بنتَ هولاكو [٤] ، وسرت هذه الظاهرة الشنعاء الى أمير مكة وهو الأمير خميصة ابن أبي نُميّ الحسني ، ولا يعزب أن يكون من أغراض غازان في إسلامه سنة ٦٩٤ تشجيعُ هذا السلوك بين أمراء المماليك ، فيقع الانقسام في جيش الأمة ، ويتمكن منهم التتار ، حيث حارت وسائله في تحقيق النصر عليهم مجتمعين .

هذه لمحة سريعة عن الحالة الإدارية في مصر والشام في دولة المماليك البحرية حيث ترعرع أديبنا الصفدي ، فلم يكن غريباً عن هذا الجو ، فتعرّض لتياره ابناً لأحد أمراء المماليك ، وخاض غمارَه كاتباً في دواوين الإنشاء لديهم فيما بعد ، فعاصر ما أسلفنا من وقائع ، وكان له ردود الفعل الكاملة حيال الأحداث الجارية آنذاك .

---

(١) البداية والنهاية ١٣/٢٣٨

(٢) المصدر السابق ١٣/١٦٤

(٣) المصدر السابق ١٣/٢٦٨ ، ٢٩٧ ، ١٤/٣

(٤) المصدر السابق ١٤/١٤٠

الحياة الاجتماعية :

كان المجتمع في مصر والشام مع بداية دولة المماليك البحرية ؛ يتكون من طبقتين متميزتين : طبقة الحكام ، وطبقة الشعب .

فطبقة الحكام هم من المماليك الذين تسلموا الحكم بعد مقتل تورانشاه ، آخر أمراء بني أيوب في مصر ، ويذكر المؤرخون[1] بأن المجموعات الأولى منهم كانت من أمة القفجاق ؛ التي هُزمت أمام التتار سنة ٦١٨ . حيث « كثر فيهم القتل والأسر ، فتفرقوا أيدي سبا في جميع الأقطار ، وكان هذا أول ورود المماليك القفجاقية على البلاد المصرية ، فاشترى منهم الصالح نجم الدين أيوب مماليكه البحرية ، ملوكُ مصر بعد الدولة الأيوبية ، وكان منهم المعز أيبك والمظفر قطز والمنصور قلاوون وغيرهم » .

وقد عرفنا جانباً من الحياة التي كانوا يحيونها . فكانوا يعيشون منذ بداية وصولهم في مستوى مرتفع ، إذ « اقتضى رأيُ الناصر ابن قلاوون ؛ أن يملأ أعينهم بالعطاء الكثير دفعة واحدة[2] » ولا نستغرب هذا إذا تذكرنا أن ثمن المملوك « بلغ في أيامه مئة ألف درهم فما دونها » كما عرفنا أن المماليك عمدوا الى تقسيم البلاد المصرية الى ٢٤ قيراطاً ، انفرد السلطان بأربعة منها ، ونال المماليكَ وأجنادَهم عشرة ، وبقي للشعب كله عشرةُ قراريط ، كان هذا قبل أن تتوسع دولتهم خارج البلاد المصرية ، أما بعد أن ضموا اليهم بلاد الشام ، فقد أصبح السلطان يمنح بعض الإقطاعات الأخرى ، على سبيل الراتب[3] أو التعويض[4] أو المكافأة[5] . ويبدو أن الأمراء

---

(١) محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية ص ٤٧٤
(٢) خطط المقريزي ٣/٣٤٧
(٣) البداية والنهاية ١٤/٢٩٥ سنة ٧٩٣
(٤) البداية والنهاية ١٤/١٠٣ سنة ٧٢٣
(٥) المصدر السابق ص ١٠٩

كانوا يضمون حقوق الجند في قراريطهم العشرة ، « فوردت المراسيم الشريفة السلطانية بأن يُجعلَ للأمير من إقطاعه النصفُ خاصاً له ، والنصف الآخر يكون لأجناده ، فحصل بهذا رفق عظيم بالجند وعدل كثير »[1] .

فعاش المماليك لذلك في امتلاء وثراء ، والشواهد كثيرة على البذخ والرفاه الذي كانوا ينعمون فيه .

فابن كثير يذكر طرفاً من عرس أَنْوك ابنِ الملك الناصر ، على بنت الأمير سيف الدين بكْتَمُر الساقي سنة ٧٣٢ هـ مما يتأبَّى على التصديق فيقول : « كان جهازُها بألف ألف دينار ، وذُبح في هذا العرس من الأغنام والدجاج والإوز والخيل والبقر نحوٌ من عشرين ألفاً ، وحُملت حلوى بنحوِ ثمانيةَ عشر ألفَ قنطار ، وحُمل له من الشمع ثلاثةُ آلاف قنطار [2] » . لذلك لم يجد السلطان الناصر حسين ابنُ الناصر قلاوون ؛ حين ورد عليه رسول صاحب العراق ، يخطب له ابنته إلا أن يطلب مملكة بغداد صداقاً لها [3] . كما كان من مظاهر غنى الدولة أن كُتب الفرمان بتعيين الأمير سيف الدين منجك « بماء الذهب وشاهده الناس »[4] ، ومن هذه المظاهر كذلك وجود بعض الوظائف : منها وظيفة (حاجب الخزانة الشريفة) التي تحتوي على عدة خزائن وصناديق ، مملوءة بالحلي والجواهر والأواني من ذهب وفضه وأمتعة حسنة[5] ، ومنها ما ذكره القلقشندي في كتابه[6] من أن « الملوك كانت قد اعتادت الرفاهية ، مع اقتدارها على تحصيل الأشياء العزيزة ، وولوعهم

---

(١) البداية والنهاية ١٤/٣١٨ سنة ٧٦٧
(٢) المصدر السابق ص ١٥٧
(٣) البداية والنهاية ١٤/٢٧٦
(٤) البداية والنهاية ١٤ / ٢٧٩
(٥) عصر الاختيار ـ محمد اسعد طلس
(٦) صبح الاعشى ١٤ / ٣٩٥

بجلبها من الأماكن البعيدة ، إكمالاً لحال الرفاهية ، وإظهاراً لأبهة الملك ، دعاهم ذلك الى جلب الثلج من الشام الى مصر ، لتبريد الماء به في زمن الحر . وقرروا له هُجُناً تحمله في البر ، وسُفُناً تحمله في البحر حتى يصل الى القلعة المحروسة . وقد كانت في أيام الظاهر بيبرس ثلاثة مراكب في السنة ، ثم أُخذت في التزايد الى أن بلغت أحد عشر مركباً . .

كما كانت نقلاته البحرية « إحدى وسبعون نقلة ، ثم صار يزيد على ذلك ، ويجهز مع كل نقلة بريدي يتداركه ، ومعه ثلاّج خبير بحمله ومداراته . ثم إن الثلج إذا وصل على المراكب والهُجن حتى انتهى الى القلعة ، خُزِّن بالشرا بخاناه السلطانية . وللمجهِّزين به من الخِلَع [1] ورسوم الإنعام رسوم مستقرة وعوائد مستمرة ..

وهذا لا يعدّ شيئاً إذا قيس بصروفات المطبخ السلطاني الضخمة ، حتى « توفقت أحوال الدولة في أيام الصالح إسماعيل » [2] ، وبلغت نفقات الدولة سنة ٧٤٥ « ثلاثين ألف ألف درهم ، منها مصروف الحوايج خاناه في كل يوم اثنان وعشرون ألف درهم . . وكان راتب الدور السلطانية في كل يوم من أيام شهر رمضان ، ستين قنطاراً من الحلوى . . وكانت الدولة قد توقفت أحوالها ، فوفر من المصروف في كل يوم أربعة الآف رطل لحم ، وستمئة كماجة سميذ ، وثلاثمئة إردبّ [3] من الشعير ... واعتبر مصروف الحوايج خاناه سنة ٧٤٨ فكان في كل يوم ٢٢ ألف رطل من اللحم » وصودر الحاج علي الطباخ « فوجد له خمس وعشرون داراً على البحر وفي عدة أماكن »

ولم تقتصر مظاهر الغنى هذه على السلاطين فحسب ، فقد وُجد عند الأمير سيف الدين بشتك الناصري ، بعد مقتله سنة ٧٤٣ « من الذهب ألف ألف دينار

---

(١) الملابس والمخصصات عن الهبات
(٢) خطط المقريزي ٣ / ٣٧٥
(٣) مكيال ضخم يساوي ٢٤ صاعاً

وسبعمئة الف دينار[1] » وترك الأمير شيخو بعد موته « الشيء الكثير من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، وكذلك من المماليك والأسلحة والعدة والبرك والمتاجر ما يَشقُّ حصرُه ويتعذر إحصاؤه[2] » . أما ما وجد بجوزة الأمير سيف الدين تنكز بعد مقتله سنة ٧٤٠ من الحلي والجواهر فشيء يقدر بالأرطال والقناطير والصناديق منها « ١٩ رطلاً من الزمرد والياقوت ، وستة صناديق جواهر وفصوص الماس و١٢٥٠ حبة لؤلؤ كبار مدورة بما زنته درهم الى مثقال و٢٤٠٫٠٠٠ مثقال ذهب و١٠ ملايين درهم فضة وأربعة قناطير مصرية من المصاغ والعقود ونحوها كالحلق والأساور ، وستة قناطير فضيات ، ومليون ومئتي ألف دينار[3] » .

كما أن بعضهم لم يكتف بما كانت تدره عليه إقطاعاته الواسعة ، بل عمد الى تطلب المال بكل الوجوه ، فنائب حلب سيف الدين قطلبُغا كان سنة ٧٥٠ « يحتاط على تركة الميت وإن كان فيها ولد ذكر أو غيره ، ويأخذ من أموال الناس جهرةً ، حتى حصل له منها شيء كثير[4] » .

أما السلطان الناصر حسن ٧٥٥ - ٧٦٢ هـ فقد « كثر طمعه وتزايد شرهه وبنى البنايات الجبارة التي لا يحتاج الى كثير منها ، واستحوذ على كثير من أملاك بيت المال وأمواله ، واشترى منه قرايا كثيرة ومدناً أيضاً ورساتيق . فشق ذلك على الناس جداً ، ولم يتجاسر أحد من القضاة ولا الولاة ولا العلماء ولا الصلحاء على الإنكار عليه ، ولا النصيحة له بما هو المصلحة له وللمسلمين .. حتى إنه قطع أرزاق

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ١٩١
(٢) المصدر السابق ١٤/ ٢٥٨
(٣) تاريخ التمدن الاسلامي - زيدان ٥ / ١٢٠
(٤) البداية والنهاية ١٤ / ٢٣١

الجند ومعاليمهم [1] وجوامكهم [2] وأخبازهم وأضاف ذلك جميعه الى خاصته [3] . . »

كان هذا في طبقة الحكام من المماليك ، فاذا انتقلنا الى صفوف الشعب ، وجدنا فيه مجموعة الموظفين اللاثذة بالحكام ، ومجموعة التجار ، ثم عامة الشعب . أما الموظفون فقد كانت تدفع لهم الرواتب الكافية ، وتصرف لبعضهم الأرزاق إضافة الى ذلك . فكان « معلوم الوزير في الشهر ٢٥٠ ديناراً جيشية مع الأصناف المذكورة من سكر وحلوى وزيت وعليق للدواب ولحم وغلة ، وتبلغ نظير المعلوم .

« وكان معلوم القضاة والعلماء أكثره خمسون ديناراً في كل شهر ، مضافاً لما بيدهم من المدارس التي يستدرون من أوقافها ، وكانوا يتوارثون هذه المرتبات ابنا عن أب ويرثها الأخ عن أخيه ، وابن العم عن ابن العم [4] » .

ويخبرنا ابن كثير بأن « القاضي شهاب الدين ابن الفضل ، رجع من الديار المصرية ومعه توقيع بالمرتب الذي كان له أولاً ، كل شهر ألف درهم [5] » . كما ينقل الينا في مكان آخر بأنه لما عزل قاضي القضاة « بدر الدين ابن جماعة لأجل كبر سنه وضعف نفسه وضرر عينيه ، جبروا خاطره فرتب له ألف درهم وعشرة أرادب قمح في الشهر [6] » .

فإذا انحدرنا قليلاً ودخلنا دار الحديث السكرية ، سمعنا ابن كثير يعدد العاملين فيها فيقول : « . . وباشر مشيخة الحديث بها الشيخ الحافظ محمد ابن شمس الدين الذهبي ، وقرر فيها ثلاثون محدثاً لكل منهم جراية [7] وجامكية ، كل شهر

---

(١) الرواتب (٢) الأرزاق
(٣) البداية والنهاية ١٤ / ٢٧٨
(٤) خطط المقريزي ٣ / ٣٦٤
(٥) البداية والنهاية ١٤ / ٢٠٧ سنة ٧٤٢
(٦) البداية والنهاية ١٤ / ١٢٨ سنة ٧٢٦
(٧) الراتب

سبعة دراهم ونصف رطل خبز ، وقرر للشيخ ثلاثون ورطل خبز . وقرر فيها ثلاثون نفراً يقرؤون القرآن لكل عشرة شيخ ، ولكل واحد من القراء نظير ما للمحدثين ، ورتب لها إمام وقارىء حديث ونواب ، ولقارىء الحديث عشرون درهماً وثماني أواق خبز [1] » .

وينتقل بنا ابن كثير الى الفقهاء ليقول بأن « الأمير الكبير (يلبغا) جدّد درساً بجامع ابن طولون ، فيه سبعة مدرسين للحنفية ، وجعل لكل فقيه منهم في الشهر ٤٠ درهماً وإردبّ قمح ، وذكر فيه أن جماعة من غير الحنفية « انتقلوا الى مذهب أبي حنيفة ، لينزلوا في هذا الدرس [2] .

أما في الجامع الأموي في دمشق ، فقد جعل الأمير يلبغا فيه « من الطلبة من سائر المذاهب ١٥ طالباً ، لكل طالب في الشهر ١٠ دراهم ، وللمعيد ٢٠ ، ولكاتب الغيبة ٢٠ ، وللمدرس ٨٠ [3] » وهذه رواتب حسنة إذا قيست بما قرره نصير الدين الطوسي وزير هولاكو ، في مؤسسته التي أنشأها للرصد في مراغة سنة ٦٥٧ هـ « ورتب فيها فلاسفة ، ورتب لكل واحد في اليوم والليلة ثلاثة دراهم ، ودارَ طِبّ للطبيب في اليوم درهمان ، ومدرسة لكل فقيه في اليوم درهم . ودار حديث لكل محدث نصف درهم في اليوم[4] » .

ويأتي بعد ذلك موظفو الدواوين ، ودَخْلهم يزيد عما سلف ، دون أن يمنعهم ذلك من الإقدام على الرشوة والاختلاس ، فكثرت حوادث القبض على القائمين بالأمور ومصادرة أموالهم ، مما رأينا جانباً كافياً منه في البحث السابق .

وإن دل إقدام الموظفين هذا على شيء ، فإنما يدل على مدى اطلاعهم على

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ١٨٤ سنة ٧٣٩

(٢) المصدر السابق ١٤ / ٣٢١ - ٧٦٧

(٣) المصدر السابق

(٤) المصدر السابق ١٣ / ٢١٥ سنة ٦٥٧

ما يحصل عليه السلطان وحاشيته وأمراؤه ، من الغنى والثراء والعيش الباذخ ، فلا يجدون بأساً من الأخذ بنصيبهم أسوةً بأولئك ، لكن هذا لم يمنع وجود من ترفّع عن قبول الوظائف ، أو من ندم لقبولها عندما حضرته الوفاة ، كردّ فعل لتهالك الناس وتزاحمهم ، وما يرونه من دسائسهم وتدني أساليبهم ، ودفعهم المال ثمناً للمنصب المنشود . يدل على ذلك ما نراه من تعدد المناصب ، حتى إنّ بعضهم كان يتسلم سبعة عشر منصباً في وقت واحد[1] « مما دفع ابنَ كثير الى التعليق عند ذكره لأحد الأشخاص بقوله « ولم يتدنّس بشيء من الولايات ، ولا تدنس بشيء من وظائف المدارس ولا الشهادات [2] » .

أما الشيخ برهان الدين الفزاري « فقد عُرض عليه قضاءُ قضاة الشام ، وألح نائب الشام عليه بنفسه وأعوانه من الدولة فلم يقبل ، وصمم وامتنع أشد الامتناع[3] » .

كما أقدم « كمال الدين ابن الشريشي على عزل نفسه عن وكالة بيت المال ، وصمم على الاستمرار على العزل ، وعُرض عليه العَوْدُ فلم يقبل ، وحملت إليه الخِلعة لما خلع على المباشرين فلم يلبسها[4] .. » « وشبيهٌ بهـــذا ما فعله قاضي القضاة عز الدين ابنُ بدر الدين ابن جماعة إذ عزل نفسه عن القضاء وصمم على ذلك ، فبعث الأمير الكبير يلبغا اليه الأمراء يسترضونه فلم يقبل ، فركب اليه بنفسه ومعه الأعيان ، فتلطفوا به فلم يقبل ، وصمم على الانعزال[5] » .

ولم تقتصر هذه المواقف النبيلة على القضاء ، فهذا « محمد ابن محيي الدين ابن عبد الظاهر كاتب الأسرار في الدولة المنصورية .. وقد طلب منه (الوزير القوي) ابن

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٣٢٢ سنة ٦٩٠
(٢) البداية والنهاية ١٤ / ١٠٩ سنة ٧٢٣
(٣) البداية والنهاية ١٤ / ١٤٦ سنة ٧٢٩
(٤) البداية والنهاية ١٤ / ٤٧ سنة ٧٠٨
(٥) البداية والنهاية ١٤ / ٣١١ سنة ٧٦٦

السَّلعوس أن يقرأ عليه كل ما يكتبه ، فقال : هذا لا يمكن ، فإنَّ أسرار الملوك لا يطلع عليها غيرهم ، وأبصِروا لكم غيري يكون معكم بهذه المثابة . فلما بلغ ذلك الأشرف أعجبه منه وازدادت عنده منزلته (١) » .

ولنترك هؤلاء وأولئك من الموظفين والحكام ، لنجدَ بين صفوف الشعب مجموعةً متميزة باليسار وسعة الثراء ، هم بلا ريب من طبقة التجار . وقد مر بنا ذكر الشيخ وجيه الدين ابن المنجا الذي ذكر « أنه حمل الى خزانة غازان ثلاثة آلاف ألف وستمئة ألف درهم ، سوى ما تمحَّق من التراسيم والبراطيل (٢) » .

ومنهم ابن قطنية الدَّرْعي التاجر ، وقد « بلغت زكاة ماله في سنة غازان خمسةً وعشرين ألف دينار (٣) » وكذلك « الصدر الكبير تاج الدين الكارمي ، الذي خلَّف مئة ألف دينار ، غير البضائع والأثاث والأملاك (٤) » .

هذا الغنى عند هؤلاء وغيرهم ، كان يغري أمراء المماليك بمصادرتهم ، فقد كان نائب السلطنة بمصر علم الدين الشجاعي سنة ٦٨٦ يتقرب من السلطان المنصور قلاوون بتحصيل الأموال . فقدم في السنة نفسها « من مصر الى الشام بنية المصادرة لأرباب الأموال من أهل الشام » ويبدو أنهم كانوا يضنون بمالهم عن الإسهام في مصالح الأمة العامة . وقد رأينا كيف اضطر السلطان سنة ٦٩٨ هـ « لاقتراض أموال اليتامى وأموال الأسرى لأجل تقوية الجيش » بينما يُجبِر ابنُ منجا بعد الهزيمة أن يحمل الى خزانة غازان ما أبان عنه في السطور السابقة .

هذا ولم يُعدَم الأمرُ وجودَ أمثال الشيخ شمس الدين محمد ابن عبد السلام الذي كان « يتردد الى عكا حينما كانت في أيدي الفرنج في فِكاك أسارى المسلمين(٥) »

---

(١) البداية والنهاية ١٤/٣٣١ سنة ٦٩١
(٢) « « ١٤/٩ سنة ٦٩٨
(٣) « « ١٤/١٠٧ سنة ٧٢٣
(٤) « « ١٤/١٥٦
(٥) « « ١٣/٢٩٨ و ١٤/٣٠

فإذا دخلنا في صفوف العامة ، وجدنا شعباً متمسكاً بدينه ، ويزيد في ذلك مجاورته للفرنج ، وحروبه مع الصليبين ، الذين وفـــدوا عليه غازين باسم الدين يتقدمهم شعاره . كما زحفت عليهم من الشرق جحافل التتار ، عدوة الأديان والحضارات والوجود الإنساني كله ، فزادته هذه الأخطار تقرباً من الله سبحانه بالعبادة والدعاء ، فكانت المساجد ملتقاهم في كل أمورهم الدينية والدنيوية .

وأبرز حادثة في هذا ، ما أقدمت عليه نساء دمشق سنة ٦٠٧ ، إذ عمدن الى شعورهم فقصصنها ، وضفرنها حبالاً للجهاد ضد الصليبين وبعثن بها الى سبط الجوزي علامة الشام وواعظها . فبكى لرؤيتها وتأثر ، وكانت عدتها ٣٠٠ حبل غليظ ، فحملت على الأعناق خلال خطبة الجمعة في المسجد الأموي من قبل ابن الجوزي . فضج الناس وتقاسموا على القتال حتى الموت ، وتزاحمت جموعهم ، وكروا على الصليبين فانتصروا ، واحتمى الصليبيون بحصون عكا ، وكتبوا الى الملك العادل يرجونه الهدنة فقبل ، بينما راح الصليبيون خلالها يستعدون للهجوم على دمشق .

وقد استغل بعض الحُبَّاء نمو الشعور الديني هذا ، فكان يدعي المكاشفات أمثال « الشيخ إبراهيم الشاغوري بدمشق ، ويذكر له أحوال ومكاشفات على ألسنة العوام ومن لا يعقل ، ولم يكن ممن يحافظ على الصلوات ولا يصوم مع الناس . ومع هذا كان كثيرٌ من العوام وغيرهم يعتقدونه[1] » وقد شاع كذلك أمر المنجمين ، « فأمر السلطان بتسليمهم الى والي القاهرة ، فضربوا وحبسوا لإفسادهم حال النساء ، فمات منهم أربعة تحت العقوبة » . كما رحنا نسمع في هذه الفترة ، ما يتردد بين أتباع المذاهب الأربعة من المنافسات المذهبية ، وتصل أحياناً الى الخصومات الحادة .

أما فئات الشعب فقد كانت متعددة ، منها السكان الأصليون ، وفئات من

---

(١) البداية والنهاية ١٣/٢٩٨ و ١٤/٣٠

الأتراك والأرمن واليهود وغيرهم ، فكانت أزياؤهم لذلك متنوعة متعددة ، حتى إنه كان هناك فئة تدعى القلندرية كانوا يحلقون لحاهم وحواجبهم وشواربهم « فورد كتاب من السلطان بإلزامهم ترك ذلك ، وبإلزامهم بزي المسلمين ، وترك زي الأعاجم والمجوس ، فلا يمكن أحد منهم من الدخول الى بلاد السلطان ؛ حتى يترك هذا الزي المبتدع ، واللباس المستشنع ، ومن لا يلتزم بذلك يعزر شرعاً ، ويقلع من قراره قلعاً [1] » .

ومن المؤكد أن السكان جميعاً كانوا يكسون رؤوسهم بالعمائم ، وكان بعض السلاطين حريصاً على تمييز عمائم المسلمين عن عمائم غيرهم ؛ باللون [2] تارة وبالحجم [3] تارة أخرى ، ويبدو أن المرأة كانت تلبس العمامة أيضاً ففي سنة ٦٩٠ « نادى نائب الشام الشجاعي أن لا تلبس امرأة عمامة كبيرة [4] » والمرأة لا تتقيد في ملابسها بزي واحد ، فقد جعلته سنة ٧٥١ قصيراً نسبياً ، وأكمامه عريضة كاشفة ، وفيه تبذير ، حتى صدر الأمر « بأن لا تلبس النساء الأكمام الطوال العراض ولا البُرد الحرير ولا شيئاً من اللباسات والثياب الثمينة ولا الأقمشة القصار ... وشددوا في تطبيق ذلك حتى قيل إنهم غرّقوا بعض النساء [5] » . وصدر بخصوصهم أمر آخر بعد بضع سنوات يقضي « بتضييق الأكمام [6] » ويبدو أن حالهم استدعى إصدار أمر ثالث سنة ٧٦٢ « بأن يمشين في ستر ، ويلبسن أُزُرهن الى أسفل عن سائر

---

(١) البداية والنهاية ١٤/٢٧٤
(٢) « « ١٤/١٤
(٣) « « ١٤/٢٥٠
(٤) « « ١٣/٣٢٢
(٥) « « ١٤/٢٣٣
(٦) « « ١٤/٢٥٤

ثيابهن ولا يظهرن زينة . فامتثلن بذلك [1] ، وقام نائب دمشق بفصل سوق خاص [2] للنساء يشترين منه الأقمشة ، وترك للرجال سوق الدهشة السابق .

وقد انتشرت في هذه الفترة التي نتحدث عنها بعض الأمراض الاجتماعية ، كانت معاقرة الراح على رأسها ، ويبدو أن مجاورة الفرنج والاحتكاك بهم ، ساعد على سعة انتشارها ، حتى قلّ أن ينسى سلطان إصدار الأوامر بإراقتها ومنعها ، وقد كان يرافقها أمر الخواطىء ، فإن سُمح فيها معاً ، وإن أُلغيا زالا معا .

وقد كان الظاهر بيبرس أول من اهتم بذلك من المماليك ، فرسم سنة ٦٦٧ « بإراقة الخمور وتبطيل المفسدات والخواطىء بالبلاد كلها ، وسُلبن جميع ما كان معهن حتى يتزوجن [3] » . ويبدو أن الناس تهاونوا في أمر الخمر ، فأمر السلطان ثانية سنة ٦٦٩ « بإراقة الخمور من سائر بلاده ، وتهدد من يعصرها أو يعتصرها بالقتل ، وأسقط ضمان ذلك وكان بالقاهرة وحدها ألف دينار في اليوم [4] » .

ولكن موضوع الخمر والزنا لم يكن يثبت على حال ؛ ففي سنة ٦٨٠ « ضُمن الخمر والزنا بدمشق وجعل عليه ديوان ومشد [5] » فقام في وجه ذلك العلماء والصلحاء فأبطل بعد عشرين يوماً . ثم أقدم قبجق خلال احتلال التتر لدمشق على إعادتها « فضمن الخمارات ومواضع الزنا من الحانات وغيرها ، وصار له على ذلك في كل يوم ألف درهم [6] » ولكن الأمر لم يطل ، فما إن غادر التتار دمشق بعد مئة يوم فقط ، حتى قام ابن تيمية وأصحابه فأبطلوا ذلك .

---

(١) البداية والنهاية ١٤/٣٨٠ .
(٢) « « ١٤/٣١٣ .
(٣) « « ١٣/٢٥٤ .
(٤) « « ١٣/٢٦٠ .
(٥) « « ١٣/٢٩٤ ؛ والمشد بمعنى إدارة خاصة به .
(٦) البداية والنهاية ١٤ / ١٠

أما منطقة الساحل ؛ فما تزال متأثرة بما غادره فيها الصليبيون « فبرزت المراسيم السلطانية الى البلاد الساحلية سنة ٧٠٩ بإبطال الخمور ، وتخريب الحانات ، ونفي أهلها ففعل ذلك » . وحين أريقت خمور أهل الذمة سنة ٧٦٧ « فاض نهر تورا من ذلك[١] » .

ومما فشا في المجتمع من الآفات ؛ ما يشير اليه الشاعر شمس الدين التلمساني سنة ٦٨٨ في محاولة للتنفير فيقول :

ما لِلحشيشة فَضْلٌ عِندَ آكِلِها لكنَّهُ غيرُ مصروفٍ الى رَشَدِهْ
صَفراءُ في وجهِهِ خَضْراءُ في فَمِـهِ حَمراءُ في عَيْنِهِ سوداءُ في كَبِدِهْ[٢]

وقد كان أكل الحشيشة شائعاً ، بخاصة في جماعة القلندرية الذين مر ذكرهم فيقول ابن كثير بحقهم « وكان اللائق أن يؤمروا بترك أكل الحشيشة الخسيسة ، وإقامة الحد عليهم بأكلها وسكرها[٣] » . كما شاع التغزل بالمذكر حتى غدا على نكره وانحطاطه كأن لا هجنة فيه ، إذ يقول ابن كثير « إن سلامش (ابن الظاهر بيبرس) كان من أحسن الناس شكلاً وأبهاهم منظراً ، وقد افتتن به خلق كثير ، واللوطية الذين يحبون المردان ، وشبب به الشعراء .. » وكذلك ساد أمر الرشوة بشكل واسع ، حتى رأينا الأمير بندار نائب السلطنة بمصر وهو على رأس حملة الى جبل كسروان لتأديبهم ، فلما أحدق بهم حملوا إليـه ليلاً ما جعله ينصرف بالجيش عنهم ، وبقي السلطان يجهل ذلك ؛ حتى نقله اليه وزيره « فلامه وعنفه فمرض من ذلك مرضاً شديداً أشفى به على الموت[٤] » .

---

(١) البداية والنهاية ١٤/٣١٧
(٢) « « ١٣/٣١٥
(٣) « « ١٤/٢٧٤
(٤) « « ١٣/٣٢٧

وحين تولى السلطان الناصر محمد ابن قلاوون ، اهتم بمعالجة عدد مما تَوضَّع في جسم المجتمع ، فأصدر سنة ٧١٢ أمراً يقضي بأن « لا يولىَّ أحد بمال ولا برشوة ، فان ذلك يفضي الى ولاية من لا يستحق الولاية ، والى ولاية غير الأهل[١] » كما أصدر في العام نفسه أمراً « بإبطال ضمان القواصير وضمان النبيذ » . ويبدو أن منطقة الساحل عادت الى ما كانت عليه قبل عام ٧٠٩ فأمر السلطان سنة ٧١٧ « فأبطلت الخمور والفواحش كلها من بلاد السواحل وطرابلس وغيرها[٢] » .

وفي سنة ٧٢٤ ولي سيف الدين قديدار ولاية مصر ، وكان شديداً على المفسدين « فأراق الخمور ، وأحرق الحشيشة ، وأمسك الشطار ، فاستقامت به أحوال القاهرة ومصر[٣] » . كما رسم السلطان سنة ٧٣٣ « بالمنع من رمى البندق ، وأن لاتباع قسيها ولا تعمل ، وذلك لإفساد رماة البندق أولاد الناس ، وأن الغالب على من تعاناه اللواط والفسق وقلة الدين ، ونودي بذلك في البلاد المصرية والشامية[٤] » .

أما من أقدم على السرقة ، فقد كانت عقوبته صارمة رادعة ، ففي سنة٧٤٨ « أمر نائب السلطنة بدمشق بجماعة انتهبوا شيئاً من الباعة ، فقطع أحد عشر منهم وسُمِّر عشرة تسميراً تعزيراً وتأديباً[٥] » .

كما كانت الدولة تؤكد منع الربا ، وتنزل بمن يتعامل به أشد العقاب ، بعد أن تنتزع منه ما أخذه بالربا ، وتفعل ذلك بمن يغفل إخراج زكاة ماله . فقد أخذت من رجل واحد من هؤلاء « مبلغ ٣٢٠ ألفاً وختم على حجبه ليعقد له بذلك مجلس فيأخذ رأس ماله منها عملاً بقوله تعالى : (وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٦٦
(٢) « « « ١٤ / ٨٢
(٣) « « « ١٤ / ١١٣
(٤) « « « ١٤ / ١٦١
(٥) « « « ١٤ / ٢٢٥

لا تظلمون ولا تظلمون) ونودي .. عليه في البلد إنما فعل به ذلك لأنه لا يؤدي الزكاة ، ويعامل بالربا »[1]

هذا وإن نوازع الخير هي الغالبة على هذا المجتمع ، رغم وجود أمثال هؤلاء المفسدين ، ولولا ذلك لما كان هناك من يهتم بالأيتام ، حتى كنا نسمع عن وجود أموال تحفظ للإنفاق عليهم ، جعل نائب السلطنة بالشام ؛ يطلب منها لتقوية الجيش « خمسمئة ألف ويعوضهم عن ذلك بقرية من بيت المال ، وكتب بذلك سجلات[2] » .

ولما كان كذلك من يهتم للأسرى ، فيوقف من أملاكه ما يجعل المسؤولين يرسلون « الى الشام يطلبون من أموال أوقاف الأسارى ما يستنقذون به من بقي في أيدي العدو من المسلمين[3] » وقد مر بنا خبر من كان يذهب بنفسه الى عكا ؛ في فكاك الأسرى لوجه الله . مما دعا الى إقامة ديوان للأسرى ، يتولى الدفع عند الحاجة في فكاكهم ، كما حصل سنة ٧٥٧ حيث راسل الجيش الفرنج « في فكاك الأسارى من أيديهم فبادرهم عن كل رأس بخمسمئة ، فأخذوا من ديوان الأسارى مبلغ ثلاثين ألفاً ، ولم يبق معهم ولله الحمد أحد[4] » . كما يطالعنا ابن كثير بالشيخ بهاء الدين أبي القاسم ، الذي اشتغل بالطب « وكان يعالج الناس بغير أجرة[5] » .

أما المستوى المعاشي الذي كانت عليه عامة الشعب ؛ فلا أشك في أنه كان متدنياً سيئاً ، لأن كل فرصة لهذا الشعب للعمل والكسب أو ثمرة له ؛ كانت طعمة للحروب والضرائب والنكبات ، إضافة الى حرمانه من استقرار يتيح له إنتاجاً يعود عليه بربح يذكر .

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٢٧٠
(٢) « « « ١٤ / ١٩٥
(٣) « « « ١٤ / ٢٥٢
(٤) « « « ١٤ / ٢٥٥
(٥) « « « ١٤ / ١٠٨

فقبل بدء فترتنا محور البحث بقليل ، كانت بلاد الشام حديثة العهد بما كان يفعله أمراء البيت الأيوبي من التطاحن لاحتلال المدن ، مستعينين بالفرنج تارة ، وبالخوارزمية أخرى . حتى إن مدينة دمشق لقيت في عام ٦٤٣ من الشدة ـ بسبب استمرار حصار الصالح أيوب ومعـــه الخوارزمية ـ ما ينكره التصديق . حتى « بيعت الأملاك بالدقيق ، وأُكلت القطط والكلاب والميتات والجيفات ، وتماوت الناس في الطرقات ، وعجزوا عن التغسيل والتكفين والإقبار [١] » بعد أن احترق أكثر أحياء المدينة . ثم تجددت هذه الحال سنة ٦٤٨ حيث تداول الأمراء دمشق خلالها أربع مرات . حتى قال بعضهم معرّضاً بالصالح إسماعيل :

ضَيَّـعَ إسْمَاعيلُ أَمْوالَـنَا وَخَـرَّبَ المَغْنَى بلا مَعْـنَى
وراح من جِلّقٍ ، هذا جزا مَنْ أَفقرَ النَّاسَ وَما اسْتَغْنَى

كان هذا حال السكان ، بينما قام الصالح إسماعيل بمصادرة « الخاتون أرغوانيه ، وهي التي كانت تصلح الطعام للمغيث ابن الصالح أيوب ، فأخذ منها أربعمئة صندوق من المال [٢] » .

ولم تكد بلاد الشام تلتقط أنفاسها من هذه المحن الغريبة ، حتى طرق التتار بابها وجاسوا خلال ديارها من أقصاها الى غزة ، ولم تلبث أن أصبحت تشكل مع الديار المصرية دولة المماليك ، التي ستخوض في أقل من خمسين سنة من ٦٥٨ حتى ٧٠٥ هـ ما يزيد على خمسة عشر حرباً كبيرة ضد ألد أعداء الإنسانية ، احتل التتار خلالها بلاد الشام مرتين ، يزهقون الأنفس ، وينهبون الأموال ، ويسبون النساء ، ويخربون الديار ، قبل أن يرتدوا مهزومين صوب العراق ، وكان آخر هذه الحروب سنة ٧٠٢ هـ .

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ١٦٦
(٢) « « ١٣ / ١٧٩

كما احتمل هذا الشعب قسوة الحروب الصليبية ، التي امتدت في فترتها هذه منذ عهد بيبرس ٦٥٨ حتى الأشرف خليل سنة ٦٩١ ، كانت البلاد خلالها مشتبكة في حروبها مع التتار لاتكاد تنتهي من معركة حتى تستعد لتلقي الأخرى .

وقد جرى في بلاد الشام أثناء الاستعداد لمعركة عكا سنة ٦٨٩ هـ ما وصفه ابن كثير بقوله : « وجاء البريد بعمل مجانيق لحصار عكا ، فركب الأعسر الى أراضي بعلبك لما هنالك من الأخشاب العظيمة ، التي لا يوجد مثلها بدمشق ، فكثرت الجنايات والجبايات والسخر ، وكلفوا الناس تكليفاً كثيراً ، وأخذوا أخشاب الناس وحملت الى دمشق بكلفة عظيمة وشدة كثيرة [1] » .

إذا كانت هذه أعباء حرب واحدة ، فما بالنا بالحروب التي لم تنته بين البلاد وأعدائها ، حتى تم تطهير الأرض من رجس الصليبيين سنة ٦٩١ هـ ، كما كانت آخر حملات التتار سنة ٧٠٢ هـ .

وخاضت البلاد ضد الأرمن في آسيا الصغرى حروباً خمساً ، انتصرت فيها جميعها منذ ٦٦٣ وحتى ٧٠٥ هـ ، وشن بيبرس حرباً ضد الباطنية في شمال سورية ، وأخرى فتح بها بلاد النوبة سنة ٦٧٤ ، وكان قد أعد أسطولاً بحرياً لغزو قبرص فغرق بفعل الرياح ، فأمر بإنشاء أسطول آخر .

وكان الشعب في كل هذا لا يتوانى عن البذل والتضحية بالمال والتطوع ، كما يعيش مع المقاتلين في ملازمة المساجد بالدعاء لهم بالغلبة والنصر .

هذا ما يتعلق بالحروب ، أما إذا اتجهنا صوب النكبات التي كانت تحل بالبلاد ، ذهلنا لما نراه من كثرتها وهولها في غالب الأحيان .

فقد وقع في مصر بين سنتي ٦٩٥ — ٧٦٤ مانيف على إحدى عشرة نازلة

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٣١٦

ما بين حريق [1] وفناء وفيضان [2] مدمر ، وزلزال [3] ، وطاعون لا حيلة للناس في رده .

ففي سنة ٦٩٥ كان الفناء بمصر شديداً « فمات في شهر صفر مئة ألف ونحو من ثلاثين ألفاً ، وأفنيت الحمير والبغال والكلاب من أكل الناس لها [4] .

وفي الطاعون الذي خيم في مصر سنة ٧٦٣ كان « يضبط من أهلها في النهار نحو الألف [5] » .

أما بلاد الشام فقد حل في أرجائها من النكبات بين سنتي ٧٠١ — ٧٦٥ ما زاد على ثماني عشرة ، ما بين جراد [6] ، وفتنة [7] دامية ، وسيل [8] مخرب ، وفيضان [9] متلف ، وحريق [10] كبير ، وزلزال مدمر ، ومرض [11] مهلك من الطاعون أو الخانوق . ففي سنة ٧٠١ « قدم الى الشام جراد عظيم أكل الزرع والثمار وجرّد الأشجار ، حتى صارت مثل العصي [12] » . ولا وسائل لدى القوم يجابهون بها زحفه الكاسح ، إلا أن يتركوه يغادر بعد أن يفتقد ما يأكله . أما السيل الذي اندفع في بعلبك فقد خرب نحواً من « ستمئة دار وحانوت سوى

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٩٩ ، ١٣٤ ، ١٨٩ ، ٢٣٩ ، ٢٥٤
(٢) » » ١٤ / ٨٢
(٣) » » ١٤ / ٢٧
(٤) » » ١٣ / ٣٤٣
(٥) » » ١٤ / ٣٠١
(٦) » » ١٤ / ٣٠٧
(٧) » » ١٤ / ٥٣
(٨) » » ١٤ / ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ١٥٦
(٩) » » ١٤ / ١٥٨
(١٠) » » ١٤ / ٢١٠ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦
(١١) » » ١٤ / ١٧٠ ، ٣٠٨
(١٢) » » ١٤ / ١٨

البساتين والطواحين [1] » ، وفي إحدى الحرائق « احترق أكثر مدينة أنطاكية [2] » ، وكذا فإن الزلزال الذي تحرك في منطقة حلب سنة ٧٤٢ « لم يبق من مدينة منبج الا القليل وأن عامة سكانها هلكوا تحت الردم [3] » . ثم كان الطاعون الذي خيم على دمشق سنة ٧٤٩ حتى بلغ حصاده « الثلاثمئة في اليوم ، وتعطلت مصالح الناس [4] » ، وقد عاد اليها ثانية بعد حوالي خمسة عشر عاماً ، ليتم ما بدأه قبلاً ، ولا حيلة لدى السكان سوى التضرع الى الله سبحانه برفعه وكشف ضره . اللهم سوى إقدامهم على قتل الكلاب ودفنها خارج المدينة . وزاد في سوء الحال ما قام به الأعراب من عصيانهم ، إذ « دمروا بلد تدمر ، وحرقوا كثيراً من أشجارها ورعوها ، وانتهبوا شيئاً كثيراً [5] » .

فكيف لا تكون عامة الشعب والحالة هذه ، من توالي الحروب والنكبات واحتمال الاضطرابات ، في حال أقرب الى الفقر ، وفي مستوى متدن من العيش ، مما دعا الكثيرين الى مد أيديهم بالسؤال ، حتى إذا سمع أحدهم بتوزيع صدقة ، خف اليها ليجد هنالك الجموع من أمثاله تنتظر العطاء ، من أي نوع كان ، وقد يلفظ أنفاسه بين المتزاحمين قبل أن يحصل على شيء . وقد حدث هذا سنة ٧٢٣ « إذ عوفي القاضي كريم الدين وكيل السلطان من مرض أصابه ، فجمع الفقراء بالمارستان المنصوري ليأخذوا من صدقته ، فمات بعضهم من الزحام [6] » .

فكان من نتيجة هذا ، أن برزت في المجتمع فئة تأصل الفقر فيها ، واستمرأت السؤال ، حتى غدا مهنتها لا تحيا إلا بتعاطيه ، غير مطمئنة الى غدها القريب

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٨١
(٢) » » ١٤ / ١٧٠
(٣) » » ١٤ / ٢١١
(٤) » » ١٤ / ٢٦٦
(٥) » » ١٤ / ٣٠١
(٦) » » ١٤ / ١٠٥

واحتمالاته المرتقبة . فهؤلاء « جماعة من السؤّال اجتمعوا قبل الفجر ليأخذوا خبزاً من صدقة تربة ، فتضاربوا فيما بينهم ، فعمدوا الى رجل منهم فخنقوه خنقاً شديداً ، وأخذوا منه جراباً فيه نحو من أربعة آلاف درهم ، وشيء من الذهب[1] » .

هذه خطوط سريعة ، رجوت أن تكون كافية لتوضيح صورة مجتمع مصر والشام ، خلال القرنين السابع والثامن الهجريين . حكام من المماليك يتمتعون بأعلى مستويات العيش ، فيتفننون في طعامهم وشرابهم ولباسهم ووفرة مماليكهم ، واستجلاب ما يكفل لهم مزيداً من الرفاه والراحة .

ومن ثم ولاة للأمور والدواوين ، يغلب عليهم التهالك على المناصب ، ودفع الأموال الطائلة يرشون بها ذوي الامر ، للوصول الى المنصب المنشود ، ثم لا يفتؤون يمدون بأيديهم الى الأموال العامة ، فيضبط أكثرهم ويصادر ما أخذه ، مما جعل بعضا منهم يأنف من الوظيفة ويترفع عنها . فيعزل نفسه أو يتأبى على التعيين ، أو يقوم بعمله حتى الإقالة العادية محمود السيرة نظيف اليد طاهر الثوب .

أما عامة الشعب ، فقد اتسمت بالبساطة ، حتى راج بينها التنجيم وادعاء الأحلام ودعاوى المكاشفات . واتصفت بالتدين العميق ، والرجوع الى الله كلما حزبها أمر ، مما كانت تعانيه من الحروب ، وتقاسيه من النكبات على أنواعها ، فكانت الخصومات الدينية والمذهبية أكثر ما يشغلها فيما بينها ويحدد مواقفها ، دون أن يخلو ذلك من وجود مجموعات تفشت فيها مختلف الأمراض الاجتماعية ، من معاقرة خمر ، أو تعاطي حشيش ، مما يسلم بالتالي الى انحرافات جنسية شاذة ، أو مزاولة سرقة ، أو تعامل بالربا .. وقد كانت هذه الآفات على أنواعها تقابل بالحزم والشدة في غالب الأحيان .

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٢٧٧

كما كانت تمر بالشعب أحوال من العدم الشديد ، تتلو غالباً حلول النكبات تدفع بالكثيرين الى السؤال والاستجداء ، حتى توضعت في المجتمع فئة تطلب للطلب لا للحاجة ، بعد أن مات فيها كبرياء النفس وإباؤها .

الحياة الثقافية :

نشطت الحياة العلمية والأدبية في هذه الفترة من تاريخ مصر والشام نشاطاً ملحوظاً ، فبالإضافة الى ما أولاه الحكام من الاهتمام بالعلم ونشره ورجاله ، فقد ساعدت الأحداث على دفع عربة العلم الى الأمام أشواطاً .

فقد طوحت يد الردى بمدن العراق وحواضر الأندلس ، ودارت عليها الدوائر ، وذهب كل ما كان لها من آثار العلم وأعمال المجد والحضارة . فوفد علماؤها على مصر والشام ، ليجدوا فيهما الدوحة المنشودة .

وهكذا أصبحت البلاد ميداناً واسعاً ، يتسابق فيه طلاب العلوم والمعارف ، ومورداً عذباً يزدحم عليه أهل الادب ومحبو الحكمة ، وروضة زاهية بمشاهير العلماء والحكماء .

وقد ورث المماليك عن الأيوبيين ، تشجيع العلم وتكريم أهله وبناء مدارسه في كافة أنحاء بلادهم .

فقد تسلم المماليك حكم الديار المصرية ، وفيها من صنيع الأيوبيين خمس وعشرون مدرسة [1] ، ثم وصلوا الى حكم بلاد الشام ، ليجدوا فيها عشرين [2]

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي – زيدان ٣ / ٢٢٦

(٢) المصدر السابق .

مدرسة أنشأها الأيوبيون . وهكذا سار سلاطينهم على سنة سادتهم ، واحتذى بهم الأمراء والفضلاء ، حتى إذا انتصف القرن الهجري التاسع كانت عدة المدارس التي بناها المماليك في مصر خمساً وأربعين [1] . وبذلك بلغت مدارس مصر وحدها في هذين العهدين سبعين مدرسة . وكذا فان مدارسهم بالشام مبثوثة في كل مدنه ، وتأتي على رأسها مدرسة الظاهر بيبرس في دمشق وتضم الآن دار الكتب الظاهرية ، تجاورها مدرسة الملك العادل وفيها مجمع اللغة العربية في مقره القديم .

ولن يطول تساؤلنا عن سبب إقبالهم هذا على نشر لغة ليسوا من أهلها ، للأسباب الآتية :

— أولها أنهم اعتنقوا الإسلام ديناً ، فأخلصوا له ، وتفانوا في الدفاع عن أرضه وأهله . وتعلموا العربية ، فأقبلوا على علومها ، ونهلوا من آدابها ، فأحبوا أهلها وفدوهم بأنفسهم .

وقد عبر بعض الشعراء عن هذه الغاية الدينية النبيلة ، في حفلة افتتاح إحدى هذه المدارس ، فقال ابن الصائغ الحنفي مخاطباً الأمير صرغتمش .

لِيَهْنِكَ يَا صَرْغَتَمْشُ ما بَنَيْتَهُ لِأُخْرَاكَ فِي دُنْيَاكَ مِنْ حُسْنِ بُنْيَانِ [2]

كما قال أبو الحسين الجزار عند افتتاح المدرسة الظاهرية بالقاهرة سنة ٦٦٢ هـ .

أَلَا هَكَذَا يَبْنِي المَدَارِسَ مَنْ بَنَى وَمَنْ يَتَغَالَى فِي الثَّوَابِ وَفِي الْثَّنَا [3]

— وثانيها أن يقدم أحدهم على بناء مدرسة تؤيد المذهب الذي ينتمي اليه ويتحمس

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ـ زيدان ٣ / ٢٢٦
(٢) خطط المقريزي ٤ / ٢٥٦
(٣) المصدر السابق ٤/ ٢١٧

له ويسعى لنشره . صنيع الأمير صرغتمش نفسه الذي « كان يشارك في الفقه على مذهب الحنفية ، ويبالغ في التعصب لمذهبه » فأنشأ مدرسته الصرغتمشية سنة ٧٥٦ ، وجعلها « وقفاً على الفقهاء الحنفيـــة الآفاقية ، ورتب لهم جميعاً المعاليم من وقف رتبه لهم[١] » ومن هذا النوع ما فعله الأمير يلبغا سنة ٧٦٧ « حين » جدد درساً بجامع ابن طولون فيه سبعة مدرسين للحنفية ، وجعل لكل فقيه منهم في الشهر ٤٠ درهماً وإردب' قمح ، وذُكر أن جماعة من غير الحنفية ؛ انتقلوا الى مذهب أبي حنيفة لينزلوا في هذا الدرس[٢] » .

— كما كان هناك من شجع العلم حباً في العـــلم ، لما كان له من الاهتمام به والاشتغال فيه . فقد كان الملك المنصور قلاوون ، على جانب عظيم من العلم والمعرفة والفضل[٣] ، ويخبرنا ابن كثير بأن ابنه السلطان الناصر محمد كان يسمع « على الشيخ شهاب الدين الحجار المعروف بابن الشحنة[٤] » . وقد عبر السراج الوراق عن ذلك ، عند افتتاح المدرسة الظاهرية فقال :

مَليكٌ لهُ في ٱلعِلْمِ حُبٌّ وأهـلِهِ ... فَللـهِ حُبٌّ ليسَ فيـه مَلامُ
فَشيَّدَها للعلْمِ مدرسةً غَـــدا ... عراقٌ إليها شَيِّقٌ وشَـآمُ
ولا تَذْكُرَنْ يوماً نِظامِيَّةً لها ... فليسَ يُضاهِي ذا النظامَ نِظامُ[٥]

— وآخر هذه الأسباب ، سعي هؤلاء المماليك لكسب رضى الأمة ومحبتها والتقدم

(١) خطط المقريزي ٤/٢٥٢ وما بعدها
(٢) البداية والنهاية ١٤ / ٣٢١ سنة ٧٦٧
(٣) عصر الانحدار .
(٤) البداية والنهاية ١٣ / ١٥٠ سنة ٧٣٠
(٥) المقريزي ٤ / ٢١٧

عندها ، فإذا كانت منزلة الخلفاء في نفوس المسلمين ، يؤيدها أكثر من عامل ، فما أحوج هؤلاء الى البرهنة الدائمة ، على أهليتهم لارتقاء سدة الرئاسة والحكم. فكان أن تبارى السلاطين والأمراء ، وتبعهم كثير من الوجهاء ، في بناء المدارس والمساجد والخوانق [1] والربط [2] والزوايا [3] والبيمارستانات [4] ، والتوقيف عليها بسخاء يغطي نفقاتها الكثيرة التي تشمل تأثيثها وتزويدها بالكتب ، ودفع المعاليم الشهرية المدرسين والفقهاء والقراء والطلبة .. مما يضمن للمدرسة البقاء والارتقاء ، فكسبوا بذلك رضى الناس وثناءهم . وقد استمعنا الى أبي الحسين الجزار وهو يقول مشيراً الى هذا ، عند افتتاح المدرسة الظاهرية :

أَلا هكذا يَبْني المدارسَ مَنْ بَنَى ... ومَنْ يَتغالَى في الثواب وفي الثَّنا
لقد ظَهَرَتْ للظاهر اليومَ هِمَّـةٌ ... بها الْيومَ في الدَّارَيْن قد بَلَغَ المُنَى [5]

وتأتي في طليعة هذه المدارس ، المدرسة المنصورية بالقاهرة ، وقد «أنشأها هي والقبة التي تجاهها والمارستان ؛ الملك المنصور قلاوون ، ورتب لها دروساً أربعة ودروساً للطب ، ورتب بالقبة درساً للحديث النبوي ، ودروساً لتفسير القرآن الكريم . وكانت هذه التداريس لايليها الا أجلّ الفقهاء المعتبرين .. وفي القبة خزانة جليلة كان فيها عدة أحمال من الكتب في أنواع العلوم [6] » .

— كما أن إنشاء هذه المدارس لم يكن قاصراً على الأحياء منهم ، إذ إن «الملك الصالح عماد الدين ابن محمد ابن قلاوون قصد عمارة مدرسة ، فاخترمته المنية دون

---

(١) ج خانقاه ، يبنى للمتصوفة .
(٢) ج رباط ، يبنى ويوقف للفقراء
(٣) ج زاوية ، يخصص للعبادة والانقطاع
(٤) البيمارستان : فارسي مركب يعني المستشفى
(٥) خطط المقريزي ٤ / ٢١٧
(٦) المصدر السابق

بلوغ غرضه ، فقام الأمير أرغون العلائي زوج أمه ، في وقف قرية تعرف بدهشا الحمام ، ورتب ما كان الملك الصالح إسماعيل قرره في حياته لو أنشأ مدرسة ، وجعل ذلك مرتباً لمن يقوم به في القبـــة المنصورية ، وهو وقف جليل ، يتحصل منه في كل سنة نحو أربعة الآف دينار ذهبا . وكان لا يلي تدريس دروسه إلا قضاة القضاة [1] » .

ـ ولم تكن نساء المماليك كذلك بعيدات عن ميدان المدارس ورعاية أهلها . فهذه المدرسة الحجازية ، وقد أنشأتها الست الجليلة الكبرى خوند ، زوجة الأمير بكتمر الحجازي سنة ٧٦١ . وجعلت بها درساً للفقهاء الشافعية ، ودرساً للفقهاء المالكية ، ورتبت لها إماماً يقيم بالناس الصلوات الخمس ، وجعلت بها خزانة كتب . فيه بجوارها قبة من داخلها لتـــدفن تحتها ، وجعلت بجوار المدرسة مكتباً للسبيل ، فيه عدة من أيتام المسلمين ، ولهم مؤدب يعلمهم القرآن ، ويجري عليهم في كل يوم لكل منهم من الخبز النقي خمسة أرغفة ومبلغ من الفلوس ، ويقام لكل منهم بكسوتي الشتاء والصيف . . وجعلت على هذه الجهات عدة أوقاف جليلة ، يصرف منها لأرباب الوظائف المعالم السنية . وكان لا يلي نظر هذه المدرسة إلا الأمراء الأكابر [2] . . »

وقد بلغ الدافع الديني عند بعضهم حداً ؛ جعله يتهيب النظر في حساب التكاليف ، فعندما فرغ الأمير علاء الدين طيبرس من بناء المدرسة التي أنشأها سنة ٧٠٩ ، وقد تأنق في رخامها وتذهيب سقوفها « أحضر إليه مباشروه حساب مصروفها ، فلما قُدِّم اليه استدعى بطشت فيه ماء ، وغسل أوراق الحساب بأسرها ،

---

(١) خطط المقريزي ٤ / ٢١٧
(٢) المصدر السابق

من غير أن يقف على شيء منها وقال : شيء خرجنا عنه لله تعالى لا نحاسب عليه [1] »

أما الأمير أقبغا عبد الواحد فإنه أراد أن ينفي عن نفسه أنه يوقف المدرسة ليؤول نفعها الى أبنائه ـ إذ إنه من مماليك الناصر ابن قلاوون ، ويحق لسيده وراثته دون أبنائه ـ فعمد حين انتهى من إنشاء المدرسة الى « جعل النظر للقاضي الشافعي بديار مصر ، وشرط في كتاب وقفه أن لا يلي النظر أحد من ذريته [2] »

ولكن هذه حالة فردية نادرة ، ويبقى من أسباب تشميرهم لبنـــاء المدارس والتوقيف عليها ؛ تأمين أبنائهم خوفاً عليهم من عاديات السلطان من بعدهم .

وعندما يكتمل بناء المدرسة تحتفل الدولة بافتتاحها ، فحين انتهى إنشاء المدرسة الصرغتمشية سنة ٧٥٧ « ركب الأمير صرغتمش ، وحضر اليه الأمير مدبر الدولة . والأمير صاحب الحجّاب ، والأمير الدوادار وعامة أمراء الدولة ، وقضاة القضاة الأربعة ومشايخ العلم ، ورتب مدرس الفقه بها قوام الدين ، فألقى القوام المدرس ، ثم مد سماط جليل بالهمة الملوكية ، وملئت البركة التي بها سكّراً قد أذيب بالماء . فأكل الناس وشربوا وأبيح ما بقي من ذلك للعامة . وقال أدباء العصر فيها شعرا [3] »

فلا مراء في أن مثل هذا الاحتفال ينشر ذكر الواقف ، ويرفع من اسمه في أوساط العلماء والعامة ، مما يشجع الآخرين على احتذائه .

وقد يبلغ الحرص ببعضهم لتكون مدرسته تامة الفائدة ، فيعمد الى تحديد بعض الشروط . من ذلك ما فعله « بهاء الشيخ نجم الدين البادرائي سنة ٦٥٥ وقد ابتنى بدمشق مدرسة حسنة ، وشرط على المقيم بها العزوبة . وأن لا يكون الفقيه في

---

(١) خطط المقريزي ٤ / ٢٢٣ وما بعدها
(٢) « « ٤ / ٢٢٥
(٣) « « ٤ / ٢٥٦

غيرها من المدارس . وإنما أراد بذلك توفر خاطر الفقيه وجمعه على طلب العلم [1] » .

ولم يكن تشجيع المماليك يتوقف عنـــد فتح المدارس . بل سيكون ذلك بتكريمهم العلماء والسماع عليهم . كما فعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٠ ، فقد « سمع على الشيخ شهاب الدين الحجار ، وخلع عليه وألبسه الخلعة بيده [2] » .

كما أن دولة الشعر لم تزل مرفوعة الأعلام ، وألسنة الشعراء تحركها الجوائز السنية يمنحها لهم الأمراء . كما وقع في حفل افتتاح المدرسة الصرغتمشية سنة ٧٥٦ ، فقد « خلع الأمير على القوام خلعة سنية ، وأركبه بغلة رائعة . وأجازه بعشرة آلاف درهم على أبيات مدحه بها وهي [3] . »

ثم كانت عناية المماليك بإقامة المارستانات ، تضيف الى ما سلف تدريس الطب ، والعناية بالصحة العامة . ويأتي في طليعتها المارستان المنصوري . « وكان سبب بنائه ؛ أن الملك المنصور لما توجه وهو أمير الى غزاة الروم ، في أيام الظاهر بيبرس سنة ٦٧٥ ، أصابه بدمشق قولنج عظيم ، فعالجه الأطباء بأدوية أخذت له من مارستان نور الدين الشهيد ، فبرأ وركب حتى شاهد المارستان فأعجب به ، ونذر إن آتاه الله الملك أن يبني مارستاناً . فلما تسلطن أخذ في عمل ذلك [4] » .

« وقد رتب فيه العقاقير والأطباء ، وسائر ما يحتاج اليه من به مرض من الأمراض ، وفرشها بجميع الفرش المحتاج اليها من المرض ، وجعل فيه فراشين من الرجال والنساء لخدمة المرضى ، وقرر لهم المعاليم ونصب الأسرة للمرضى . . وأفرد لكل طائفة من المرضى موضعاً . . وجعل الماء يجري في جميع هذه الأماكن ،

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ١٩٦ سنة ٦٥٥
(٢) « « ١٣ / ١٥٠
(٣) خطط المقريزي ٤ / ٢٥٦
(٤) « « ٤ / ٢٦٠

وأفرد مكاناً لطبخ الطعام والأدوية والأشربة ، ومكاناً لتركيب المعاجين والأكحال والشيافات ونحوها .. ومكاناً يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء درس الطب . ولم يحص عدة المرضى ، بل جعله سبيلاً لكل من يرد عليه من غني أو فقير ، ولا حدد مدة لإقامة المريض به ؛ بل يرتب منه لمن هو مريض بداره سائر ما يحتاج اليه . كما جعل فيه أقساماً خاصة بالنساء .. وجعل النظر لنفسه أيام حياته ، ثم من بعده لأولاده ، ثم من بعدهم لحاكم المسلمين الشافعي .. فبلغ مصروف الشراب منه في كل يوم خمسمئة رطل سوى السكر .

«ولما تجزت العمارة سنة ٦٨٣ وقف عليها الملك المنصور من الأملاك بديار مصر وغيرها ، ما يقارب ألف ألف درهم في كل سنة ، رتب مصاريف المارستان والقبة والمدرسة ومكتب الأيتام ومما قاله فيه شرف الدين البوصيري .

مدينةُ علمٍ والمدارسُ حولَها ... قُرًى أو نجومٌ بَدْرُهنَّ مُنيرُ[1]

أما بناء المماليك للمساجد فشيء كثير ، ولم تكن مقصورة على العبادة فحسب بل كانت تعقد فيها حلقات العلم على أنواعه ، وبخاصة الجامع الأزهر الذي أولاه المماليك عناية خاصة ، فأصلحوه أربع مرات . اهتم بأمره فيها الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ ، والأمير رسلان سنة ٧٠٢ إثر زلزال أثر فيه ، فنجم الدين ابن علي الإسعردي محتسب القاهرة سنة ٧٢٥ ، ثم الأمير سعد الدين الجامدار سنة ٧٦١ وكان يسكن قريباً منه ، فأراد أن يحسن الجوار اليه فأستأذن في إدخال ما يصلحه .

وقد كانت مدارسهم جوامع تقام فيها الصلوات ويتلى في أكثرها القرآن الكريم ليلاً ونهاراً شأن المدرسة الحجازية[2] .

كما ابتنى المماليك الخوانق للصوفية ، وقد زاد عددها على العشرين ، وكان من

---

(١) خطط المقريزي ٤ / ٢٥٩
(٢) « « ٤ / ٢٢٣

أشهرها خانقاه سرياقوس التي « أنشأها السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون .. وجعل فيها مئة خلوة لمئة صوفي ، وبنى بجانبها مسجداً تقام به الجمعة ، وبنى بها حماماً ومطبخاً وكمل البناء سنة ٧٣٥ .. كانت معالم هذا الخانكاه من أسنى معلوم بديار مصر . يصرف لكل صوفي في اليوم من لحم الضأن رطل قد طبخ في طعم شهي ، ومن الخبز النقي أربعة أرطال ، ويصرف له في كل شهر مبلغ أربعين درهماً فضه ، ورطل حلوى ، ورطلان زيتاً من زيت الزيتون ، ومثلا ذلك من الصابون ، ويصرف له ثمن كسوة في كل سنة ، وتوسعة في كل شهر رمضان وفي العيدين .. وبها الطبائعي والجرائحي والكحال ومصلح الشعر .. فكان المنقطع بها لا يحتاج الى شيء غيرها ، ويتفرغ للعبادة ومما قيل في الخانقاه وما أنشأه السلطان بها :

سِر نحوَ سرياقوسَ وانزِلْ بِفِنا ... أَرجائها يا ذا النُهى والرُشْدِ

تَلْقَ مَحَلّاً للسرور والهَنــا ... فيه مُقامٌ للتقى والزُّهــدِ

نَسيمُهُ يقولُ في مَســيرِهِ ... تَنَبّهي يا عَــذَبات الرَّنـدِ

ورَوضُهُ الرَّيانُ من خليجهِ ... يقول دعْ ذكرَ أراضي نَجدِ (١)

وذكر المقريزي في سبب إنشاء السلطان لهذه الخانقاه ، أنه كان راكباً للصيد « فأخذه ألم عظيم في جوفه كاد يأتي عليه ، وهو يتجلد ويكتم ما به حتى عجز ، فنزل عن الفرس والألم يتزايد به ، فنذر لله إن عافاه الله ليَبْنِيَنَّ في هذا الموضع موضعاً يعبد الله تعالى فيه ، فخف عنه ما يجده وركب ، فقضى نهمته من الصيد (ثم عاد بعد أيام) ومعه عدة من المهندسين واختط هذه الخانقاه .. »

كما أقام المماليك الربط والزوايا ، واعتنوا ببناء المساجد ، التي لا يزال أكثرها قائماً في دمشق والقاهرة وغيرهما ، يشهد بطول باعهم في هذا الميدان .

(١) خطط المقريزي ٤ / ٢٨٤ وما بعدها

أما التعليم ، فلم يكن مقصوراً على المدارس ، بل كانت تعقد حلقات للتدريس في المساجد أو في بيوت العلماء أنفسهم . وكان بعض الشيوخ يجمع بين المدارس والحلقات معاً شأن « الشيخ ركن الدين أبي يحيى زكريا ابن يوسف البجلي الشافعي مدرس الطيبية والأسدية ، وله حلقة للاشتغال بالجامع ، يحضر بها عنده الطلبة [1] » .

وزاد اهتمام الناس بالعلم وتحصيله ، وشاع في المجتمع أمثال أبيات ابن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩ ناصحاً ولده بقوله :

أُطلُبِ ٱلعِلْمَ ولا تَكسَلْ فما ... أَبعدَ الخيرَ على أهلِ الكسَلْ
واحْتَفِلْ بالفقه في الدينِ ولا ... تشتغِلْ عنهُ بمالٍ وَخَوَلْ
جَمِّلِ المَنْطِقَ بالنحوِ فمَنْ ... يُحرَمِ الإعرابَ بالنُطْقِ اخْتَبَلْ
أُنظُمِ الشعْرَ ولازِمْ مَذْهَبي ... في اطِّراحِ الرفدِ لا تَبغِ النِّحَلْ
فهوَ عنوانٌ على الفَضْلِ وما ... أحسنَ الشعرَ إذا لم يُبْتَذَلْ

كما كان العلماء على درجات ، أعلاها ما اقترن بالرحلة في طلب العلم ، وكان يذكر له ذلك . فابن كثير يخبرنا عن « الشيخ الإمام العالم بقية السلف رضي الدين الطبري المكي الشافعي إمام المقام أكثر من خمسين سنة ، سمع الحديث من شيوخ بلده والواردين اليها ، ولم يكن له رحلة [2] » كما ينقل الينا صورة واحد من مجالس العلم والأدب ، مما كان يعقد في منزل أحد رجاله وذلك سنة ٧٦٣ فيقول : « دعيت الى بستان الشيخ العلامة كمال الدين ابن الشريشي شيخ الشافعية ، وحضر جماعة من الأعيان ، منهم الشيخ العلامة شمس الدين ابن الموصلي الشافعي ، والشيخ الإمام

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ١٠٣ سنة ٧٢٢
(٢) المصدر السابق

صلاح الدين الصفدي وكيل بيت المال ، والشيخ الإمام العلامة مجد الدين محمد ابن يعقوب الشيرازي من أئمة اللغوين ، والخطيب الإمام العلامة صدر الدين ابن العز الحنفي أحد البلغاء الفضلاء ، والشيخ الإمام العلامة نور الدين على الصارم أحد القراء المحدثين البلغاء ، وأحضروا نيفاً وأربعين مجلداً من كتاب (المنتهى في اللغة) للتميمي البرمكي وقف الناصرية ، وحضر ولد الشيخ كمال الدين ابن الشريشي ، وهو العلامة بدر الدين محمد واجتمعنا كلنا عليه ، وأخذ كل منا مجلداً بيده من تلك المجلدات ، ثم أخذنا نسأله عن بيوت الشعر المستشهد بها ، فينثر كلاً منها ويتكلم عليه بكلام مبين مفيد . فجزم الحاضرون والسامعون أنه يحفظ جميع شواهد اللغة ، ولا يشذ عنه منها الا القليل الشاذ . وهذا من أعجب العجائب وأبلغ الأغراب [1] » .

ولقد كان من مظاهر تشجيع المماليك للعلم والأدب وأهلها ، عنايتهم بديوان الإنشاء وحسن اختيار القائمين عليه ، حتى إن ناظر الديوان كان يخضع لاختيار السلطان نفسه بما يجب أن يجتمع له من صفات العلم والموهبة الأدبية ، والتدين وحسن السيرة ، نظراً لأهمية منصبه ، واطلاعه على أسرار الدولة والسلطان . لذا كان لقب كاتب السر [2] أحد ألقاب ناظر الديوان هذا ، وقد مر بنا ما كان من « محمد ابن محيي الدين ابن عبد الظاهر كاتب الأسرار في الدولة المنصورية . . اذ طلب منه (الوزير) ابن السلعوس أن يقرأ عليه كل ما يكتبه فقال : هذا لا يمكن ، فان أسرار الملوك لا يطلع عليها غيرهم ، وأبصروا لكم غيري يكون معكم بهذه المثابة . فلما بلغ الأشرف ، أعجبه منه وازدادت عنده منزلته [3] » .

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٢٩٥ سنة ٧٦٣

(٢) خطط المقريزي ٣ / ٣٦٧

(٣) البداية والنهاية ١٣ / ٣٣١ سنة ٦٩١

وهكذا بلغ كاتب السر منزلة عظيمة في دولة المماليك « وصار اليه التحدث في مجلس السلطان عند عقد المشورة ، وعند اجتماع الحكام لفصل أمر مهم ، وله التوسط بين الأمراء والسلطان فيما يندب اليه عند الاختلاف أو التدبير ، واليه ترجع أمور القضاة ومشايخ العلم ونحوهم في سائر المملكة مصراً وشاماً ، فيُمضي من أمورهم ما أحب ، ويشاور السلطان فيما لا بد من مشاورته فيه [1] » .

لذلك تنافس على هذا المنصب كبار الكتاب ، وعمل للوصول الى هذه المرحلة كل أحد من ذوي الطموح ، فكان ذلك مدعاة للتوسع في التزود والتحصيل .

وفي (صبح الأعشى) يعدد القلقشندي ، ما يجب أن يعرفه صاحب ديوان الإنشاء أو الكاتب فيه ، وهو شيء يستدعي من الطالب جهداً كبيراً ، وسعياً حثيثاً ، ليؤهل نفسه لذلك المنصب ، ويُعد الذين تسلموا هذا المنصب أعلاماً في الكتابة والأدب . فمنهم : ابن فضل الله العمري ، والقلقشندي ، وضياء الدين ابن الأثير ، وصلاح الدين الصفدي ، وعز الدين ابن أبي الحديد . . والمقريزي ؛ الذي يقول عن نفسه عند ذكره قاعة ديوان الإنشاء « وأنا جلست بها عند القاضي بدر الدين محمد ابن فضل الله العمري ، أيام مباشرتي التوقيع السلطاني الى نحو سنة ٧٧٠ [2] » .

ويكمل صورة العصر العلمية ، ما نتج فيه من المؤلفات الغزيرة ، فقد كان على اضطرابه السياسي كثير النتاج التأليفي . ولمع فيه مؤلفون بلغت مؤلفاتهم المئين من الكتب ، وأقرب مثال لذلك أديبنا الصلاح الصفدي ، فقد كان غزير التأليف لا يفتر عنه .

أما ما يتعلق بخزائن الكتب ، فقد كانت كثيرة وغنية ، وحسبنا أن نقول : إن كل مدرسة ومسجد ومارستان . . وغير ذلك مما أنشأه المماليك ، كانت تلحق به

(١) خطط المقريزي ٤ / ٣٦٧
(٢) خطط المقريزي ٣ / ٣٦٦

خزانة عامرة تضم الأجمال من الكتب النفسية ، والمصنفات النافعة ، في كل فن ومطلب . هذا سوى المكتبات في بيوت العلماء والأدباء وغيرهم من المشتغلين .

هذه بالإجمال صورة دالة عن الحالة الثقافية في دولة المماليك :

اهتمام بالتحصيل العلمي ، عنـــاية بالمدارس وإنشائها ، وإقامة للمساجد والخوانق والربط والزوايا للعبادة والتدريس ، ثم إنشاء للمارستانات ليكون منها كل الخير للمواطنين والعلم على السواء .

وقد سار المماليك في هذا الشوط حتى النهاية ، فلم يبخلوا بمال أو يضنوا بنفقة ، حتى غدا عصرهم ـ بغض النظر عن الأسباب الدافعة لهم ـ درة في جبين الثقافة الإسلامية ، بما كان فيه من البذل والتشجيع ، وانتشار العلم وغزارة التأليف .

★ ★ ★